

مصطفى محمود

الغلبون

الطبعة الثامنة



دار المعارف

XXXXXXXXXXXXX , XXXXXXXXXXXXXXXX

أنا الدكتور م . داود دكتوراه في جراحة المخ والأعصاب من جامعة برلين .. أخطو الآن نحو الستين من عمري وإن كانت المرأة التي تطل على من ركن الدولاب تقول غير هذا .

تجاعيد ... وعظام بارزة .. وأنامل معروفة .. وبشرة مغطنة .. وخد مضيم .. وشعر أشيب .. وأجفان وارمة .. وعينان حمراوان تطل منها نظرة مرتاعة . تلك النظرة المرتاعة دائماً .. كأنى كهل في الثمانين يخطو خطواته الأخيرة نحو النهاية .

لا .. بل هو ذلك السر ..

ذلك السر الرهيب الذى ظلت أحمله بين جنى طيلة هذه السنوات وأحمل معه تلك المسئولية الجسيمة ..

وإلى متى .. ؟ !

لقد جاء الوقت .

نعم .. جاء الوقت لأتكلّم وأسطر في هذه الأوراق خطايا هذه السنوات
الرهية التي عشتها .. وأكشف ذلك السر .

وليعدّرنى من تقع في يده هذه المذكرات اذا وقع على اصطلاح لم
يفهمه .. وليغفر لى السرعة التي أكتب بها تلك الأوراق فما بقى في العمر
فسحة ..

وهأنذا أكتب الآن وأنا ألهث وأشعر بدبيب الموت يدب مع كل
نبضة .. لكأنما الفناء سوف يلحقنى قبل أن أفرغ من كشف هذا السر
الرهيب .. ولوحدث ذلك .. بإلهى .. من يدري؟ .. ربما عاشت
الإنسانية أجيالا أخرى من الظلمات قبل أن تتجلى تلك الحقيقة اللمينة فلا
يكشفها أحد .. وتظل الحياة سراً مستغلقاً ملغزاً إلى الأبد .

ودعوني أبدأ .. فالقصة طويلة .

ولأبدأ من البداية ..

من عصر ذلك اليوم البعيد من ست سنوات .

• • •

في شتاء عام ١٩٥٨ في يوم أحد غائم رطب في غرفة الكشف بالعبادة
وقد شربت قهوتي كالعتاد حينما طرق الباب أول زائر ، شاب نحيل صفراوى
النظرات ، ذو وجه شاحب .

كدت أقول له من اللمحة الأولى الشكوى التي يشكو بها .. وأصف له
الدواء دون حاجة إلى فحص .

كان وجهه صفحة مكشوفة معروفة تنبئ عن مصران غليظ ومرارة وسوء
هضم .. ذلك الثلاثى المألوف في بلادنا .

ولكنه لم يشك بأى شكوى من هذه الشكاوى وإنما قدم لى رويشة عليها
تحويل من طبيب معروف .. وعلى الرويشة قرأت خمس كلمات :

اشتباه ورم في المخ .. للفحص .. والعلاج .

ورم في المخ ؟

ما الذى جعل الطبيب يفكر في احتمال ورم بالمخ ؟

وسألته عن شكواه فقال إنه يعانى من صداع مزمن وزغللة في العين ..

أعراض عادية يمكن أن توجد في ألف مرض ومرض .

سوء الهضم يمكن أن يؤدى إلى صداع .. الإمساك المتكرر .. فقر الدم ..

الجيوب الأنفية .. الأضرار التالفة .. ضغط الدم .. عدم استخدام

النظارة في القراءة .. إدمان الخمر .. القلق النفسى .. كل هذه أسباب

يمكن أن تؤدى إلى صداع وزغللة . ما الذى جعل الطبيب يفكر في ورم

بالمخ ؟

هذا تشخيص خطير لا يصح فيه الأخذ بالشبهات .

ولم يكن أمامى وقت لأتأمل وأتأمل .

ومضيت في الفحوص المألوفة .. كشف دقيق لقاع العين .. صورة أشعة

للدماغ .. قياس ضغط للسائل الشوكى .. وإجراء رسم كهربائى للمخ .

ومن خلال منظار قاع العين مضيت أتأمل العصب البصرى ..

الشبكية ، وكانت النظرة الأولى مؤكدة لظنى .. لم تكن هناك أى علامة

من علامات ورم المخ وارتفاع ضغط السائل السحائى .. كان كل شىء يبدو

طبيعياً .

وتشجع المريض وهو يرى الاتسامة على وجهى وسألنى :

- كيف الحال يا دكتور .

- خير .. كل خير .. أنا لا أرى أمامي أى شىء .

- متشكر .

وسكت لحظة ثم عاد يقول فى اضطراب :

- ولكن الدكتور كان عنده اشتباه .

- أى اشتباه ؟ أنا لا أرى أمامي أى مرض مريب .. وعلى أى حال

سأكشف عليك بالأشعة لتطمئن .

وبينا كانت المريضة تجهز غرفة الأشعة ، كنت أكتب ملاحظاتى

كالمعتاد فى ورقة الكشف .. وكان يجاوب عن أسئلتى وقد زال التوتر من

نبراته .. وتراخت عضلات وجهه المنقبضة .

- اسمى راغب دميان ، مهندس كهرباء أقم فى ١٥ شارع ابن الوليد

بحدائق القبة ، أعمل حالياً فى وحدة أبحاث الراديو فى قصر العيني .

- متزوج ؟

فأجاب بابتسامة وهو ينظر إلى دبلة الخطوبة فى يده اليسرى :

- فى الطريق .

- منذ متى وهذه النوبات من الصداع تعاودك ؟

- منذ شهرين .

- كيف بدأت أول نوبة ؟

- كان ذلك فى ليلة أحد .. وما زلت أذكر اليوم والساعة وكأنها حدثت

الآن .. كنت فى طريق عودتى من السينما والليل شديد الظلام والقمر فى

خسوف كلى والأولاد يجلبون على الصفيح .. هذه العقائد الخرافية الشائعة

فى الأحياء البلدى .. وأنا أتلفت حولى فى شرود أفكر فى الفيلم .. وأنظر

حولى فى البيوت والمآذن والحقول فيخيل إلى أنها مرسومة بالفحم وأنها غير

حقيقية .. وأرى الدنيا كلها بعين حائلة وسانة فيخيل إلى أنها وهم ..

خيال .. وأن ..

وكنت أكتب مايقوله باختصار حينما سمعته بسكت فجأة .. ورفعت

وجهى لأراه يميل فى ضعف وهو يطفى عينيه .

وبعد لحظات كان فى غيبوبة تامة .. يتنفس بحسرة وبهتة ، وقد

اتسعت حدقاته كأنما يعانى فرعاً هائلاً لا حد له ، وتشنجت أطرافه وتصلبت

كأعواد من حديد .

وبينا كنت أقوم بإسعافه .. لاحظت أن أطرافه تسترخى شيئاً فشيئاً ..

وأن عينيه تنطلقان فى هدوء .. وأن فمه يتحرك لتخرج منه كلمات واضحة ..

لم تكن كلمات عربية .. ولكن كلمات أجنبية .

ولم أجد صعوبة فى اكتشاف أنها لغة أسبانية .

كان يتحدث فى غيبوته بلغة أسبانية سليمة .. وكان يتكلم عن صديق له

اسمه « دون سباستيان كاميللو » مضارع فى حلبة ثيران ، وكان يبدو أنه على

وشك البكاء .. وظلت نبراته تنحفت حتى أصبحت هساً وفحيحاً مكتوماً ..

ثم سكت .. وتخفض وجهه بالدعوى .

وكنت أنظر إليه فى ذهول .. وقد شلت غرابة المفاجأة ذهنى وبعد دقائق

رأيت يفتح عينيه .. وينظر إلى كأنه عائد من عالم آخر وتدرجياً بدأت تظهر

فى نظرتة إشراقة الإدراك .

ثم رأيت يمسك يدي فى رقة معتبراً ، وفى صوته رجفة .

- لقد رأيت بنفسك .. إنها النوبة .

والتقط أنفاسه ثم عاد يقول بصوت باك :

- إنها تفاجئني في أى مكان .. بدون إنذار .

وراح يفرك يديه في استسلام .

وسأله :

- هل أخذت شهادتك من أسبانيا ؟

ونظر إلى في دهشة لسؤال المفاجئ :

- لا .. أخذتها من مصر .. أنا لم يسبق لى أن سافرت خارج القاهرة

وقلت مندهشاً :

- ألم تتعلم الأسبانية ؟

وأجاب في دهشة أكثر من دهشنى :

- أنا لا أعرف حرفاً واحداً في الأسبانية .

ثم أردف في ارتياب :

- لماذا تسأل هذا السؤال ؟

- لأنك طوال النوبة كنت تتكلم الأسبانية .

وبدا عليه أنه لا يفهم ما أقوله .. ونظر إلى مذهولاً .

كان من الواضح أنه لا يذكر حرفاً واحداً مما قاله في أثناء غيبوته

وجلست أدون ملاحظاتي عن هذه النوبة العصبية الغريبة .. وقد تحرك فى

فضول لا حد له .

لم يكن ذلك الذى أراه أمامى .. حالة صداد .. ولا حالة ورم بالبخ .

وإنما حالة خامضة لا عهد لى بها :

في ذلك اليوم لم أستطع أن أكشف على أى مريض آخر .

كان ذهنى قد توقف عند تلك الحالة الغريبة .

وكانت أفكارى تدور وتدور ثم تعود لتتركز عند راغب دميان ، وفي

البيت لم أستطع أن آكل لقمتى دون أن أفكر .

وحينما ألقيت بجسمى آخر الليل على الفراش ظلت مفتوح العينين أفكر

وأعيد النظر في هذه الحالة الغريبة .

هل يمكن ؟

هل يمكن أن يحيد الإنسان لغة لم يتعلمها .

وإذا لم يكن هو الذى يتكلم ..

فمن كان يتكلم ؟

وكيف يوجد اثنان في جسد واحد ؟

هل هي الخرافة التى يسمونها المس الروحية ؟

غير معقول ..

هذه تخاريف لا يمكن أن تقال في عصر الذرة .

لم أكن أعتقد في شيء اسمه أرواح ، فأنا بحكم دراستى أعلم أن كل

شيء حقيقى في الدنيا يجب أن يكون قابلاً للإدراك بالحواس .. أما ما لا يرى

ولا يسمع ولا يشم ولا يلمس ولا يعقل فهو ببساطة غير موجود .

الحياة .. نظام .. وقوانين .. ومقدمات .. ونتائج .. وأسباب ..

ومسيبات .. لا مكان للتخمين والحدس ..

لا مكان للتخريف .. وافترض أشباح لا وجود لها ..

نحن نعيش في عالم منطقي معقول .. وما يحدث حولنا يمكن رصده في

إحصاءات ومعادلات ويمكن دراسته وملاحظته والتنبؤ به .
لا مكان لهذه التخاريف .

كنت أرفض بشدة هذا التدجيل ..

ولكنني في الواقع . في أعماق نفسي لم أكن مستريحاً .

كنت أشعر أن ما قلته ليس هو كل الحقيقة .

نعم .. فهناك أشياء كثيرة غير مفهومة .

هذا الراديو « الترانزستور » الصغير في حضي الذي لا يزيد حجمه على علبة كبريت يلتقط من الهواء كلمات .. هذه الكلمات كانت تسبح أمواجاً في الفضاء .. ومن قبل أن أفتح هذا الراديو .. كانت هذه الأمواج تدرع الفضاء حولي .. لا ترى .. ولا تسمع .. ولا تحس .. ولا تلمس .. ومن قبل اختراع هذه العلبة الصغيرة السحرية .. كان الفضاء مشحوناً بهذه الموجات اللانهائية بدون أن تدرك أو ترى .. فهل معنى هذا أنها كانت دجلاً وهذياناً لا وجود له .

نحن في العادة لا نعترف إلا بما نراه ونلمسه .. وهذا غرور . فما أقل ما نرى . وما أقل ما ندرك في هذه الدنيا .

هاهنا بين يدي في هذا الراديو الصغير بقلعة يسيرة من المؤشر أسمع إشارات تلفزيونية واضحة من محطات مختلفة من العالم .. لو كانت عندي شفرتها لعرفت ماذا تقول .. ولكنني بدون هذه المعرفة لا تبلى هذه الإذاعات إلا مجرد دقات وشوشة .. وبالمثل هذا « الوش » الذي أسمعه حيناً أحرك مؤشر الراديو مرة أخرى قد لا يكون وشاً .. قد يكون لغة أخرى لا أعرف شفرتها .

كانت فكرة عابرة .

ولكنها بدت لي مخيفة .

فقد بدأت الرياح تزجر في الخارج والجو يبرد .

وساءلت نفسي . هل هي ضجة .. مجرد ضجة .. أو أنها هي الأخرى

لغة ؟ وإشارات مثل إشارات « مورس » لها شفرتها ومفتاحها ؟

نعم .. من يدري .. ربما كانت لغة كونية ومفردات وكلمات .. كل ما في

الأمر أننا نجعل شفرتها .

وانفتحت ضلفة النافذة فجأة ومرقت ربيع باردة .. فانتفضت في

مكانى . وجذبت الغطاء في رعب وأنا أنظر إلى البرق الذي شق ظلمة

السماء كسيف لامع .

نعم ..

كل هذه الأحداث يمكن أن تكون لغة بالمية لا نعرف شفرتها ..

خلف هذه الظلمات المحجبة .. من يدري .. كم من الأمواج

والإشعاعات مما نعلم ، ومما لا نعلم !

وخلف هذا الصمت الأبدي .. وراء هذه المتاهات الشاسعة من

الفضاء .. كم من الأصوات هناك مما لا نسمع .. ومن الأرواح ، ومن

الأطياف ؟

ولتأبني دعر ..

وأخذت ألتصص بعيني من تحت الغطاء .. وقد بدت لي كل قطعة

أثاث في الغرفة السابحة في الظلام وكأنها كيان له لغته وله روحه .

وتسلل الذعر إلى أوصالي فجثدما وشلها .

واستجمعت كل شجاعتي .. ومر وقت خلته ساعات وأنا أتسلل
بأصابعي إلى زر النور لأضغط عليه .

وأضاءت الغرفة بنور باهر .. وتصيب العرق بارداً على جسدي ..
وتنفست الصعداء .. وأنا أتلفت حولى فى قطع الأثاث المألوفة .
كانت كل قطعة فى مكانها .. جامدة ميتة كما عهدتها .. بلا روح ..
كنت أتخيل أشياء لا وجود لها .

يارب ..

ومسحت عرقى وشعرت بالسعادة وأنا أنظر إلى غرفتى المألوفة وقد
استقرت كل قطعة أثاث فيها خرساء لا تنطق .

كنت أشعر بالسعادة لأنى أنا الحى الوحيد فى هذا الموات .
انا الذى أهدد هذا الوجود .. وهو لا يملك أن يهددنى .
أستطيع أن أحرك أى قطعة أثاث من مكانها وألقيها فى الشارع . ها هنا
بنى .. وغرفتى .. وأشياءى .. كلها ملكى .

وشعرت أنى أسترد حريقى إزاء هذه المفردات الجامدة المتناثرة وعادتنى .
الثقة بنفسى ..

وابتسمت ..

ثم ضحكت ..

ثم قهقهت فى عصبية على تلك الأفكار المستيرية التى راودتنى . كانت
سريحة مضحكة فعلاً .

كيف وصلت لى الفكرة إلى هذا المدى ..

إن الظلام والسكون والوحدة .. والأعصاب المتوترة .. يمكن أن تفعل
بعقولنا الأفاعيل .

ولكن ..

ولكنى كنت مازلت أفكر . وقد تذكرت أحداث اليوم العصيب كله .
كانت القضية كلها مازالت هناك بلا حل . ذلك المريض الغريب ..

راغب دميان ..

كان لا بد من تفسير ..

لم يكن فى إمكانى أن أنام دون أن أعثر على تفسير .
وأشعلت سيجارة .. وعدت أفكر فى هدوء وأتوسل بكل ما أعرف من
محصول علمى فى جميع المجالات .

إن الأصوات .. جميع الأصوات فى هذا الكون لا تفتنى .. وكل ألوان
الطاقة يتحول الواحد منها إلى الآخر ولكنها لا تفتنى .. الكهرباء تتحول إلى
حركة والحركة إلى حرارة والحرارة إلى ضوء .

والكبريت حينما يحترق ويختفى هو فى الحقيقة لا يختفى ولكنه يتحول إلى
غازات ونار وأبخرة .

كل شىء باق .. لا شىء يضيع فى هذه الدنيا .. وإنما هو يتحول
ويتبعثر ويتشتت .

ولو أمكننا بطريقة ما أن نجتمع مايتشتت فى الكون ونعيد إلى صورته
الأولى كما نجتمع أمواج اللاسلكى من الهواء بجهاز الراديو الصغير ونعيدها إلى
صورتها الصوتية الأولى .: لأمكننا أن نعرف الكثير .

لأمكننا أن نجتمع من الفضاء صوت الإسكندر المقدونى .. ونسمع

ما كان يقوله على أسوار عكا ..

نعم ..

من يدري ..

هذا احتمال .. مجرد احتمال .. مجرد نظرية ..

قد يكون في مخ ذلك المريض العجيب .. راغب دميان .. توليفة
عصية خاصة تمكنه من جمع هذه الأصوات كما يجمع الراديو الأمواج
اللاسلكية من الهواء ويبعد نطقها ..

وقد يكون ما حدث لحظة الإغماء .. أن هذه التوليفة العصية جمعت
من الهواء تلك الكلمات الأسبانية التي كانت مفقودة مشتتة في الفضاء ..
وأعدت نطقها ..

نظرية خيالية ولكنها نظرية على أية حال ..

وهي ليست بلا أساس ..

إنها بداية خيط ..

بداية واهية .. ولكنها بداية ..

واسترحت بعض الشيء ..

ومضيت أدندن في النافذة ..

وأدبرت اليك آب .. ورحلت أعبت في صف الأسطوانات على الرف
باحثة عن موسيقى خفيفة تناسب وقت النوم .. ولكن المصنف انفرط من يدي
وسقط على الأرض ..

وانكسرت أسطوانة قديمة ..

ورحلت أجمع القطع المكسورة ..

وفي النور قرأت اسم الأسطوانة «بكائية أسبانية في رثاء المصارع
الأسباني الشهير دون سباستيان» ..

دون سباستيان ؟

نفس الاسم الذي نطق به الرجل وهو مغنى عليه !

ولم أفهم معنى هذا كله ..

وكنت مازلت أنظر في قطع الأسطوانة المكسورة .. ويداي ترتجفان ..

وكان قلبي يدق بشدة وأنا أستخرج الشريط من الجهاز وأبسطه أمامي
وأفحصه بعدسة مكبرة ..
أخيراً ..

كانت هناك تلك الذبذبة العالية غير الطبيعية تكاد تمزق التسجيل .
ذبذبة تبلغ قوتها ٩٠ « ميكرو فولت » تظهر مرة كل ثانية وسط
الذبذبات العادية القصيرة التي تتواتر بسرعة في التسجيلات المألوفة .
وكان من الواضح من شكل الذبذبة العالية وتواترها البطيء المنتظم أنها
لا تدل على ورم مخي أو صرع أو التهاب أو أى مرض مخي معروف .
وعدت إلى مراجعي ونشراتي ومجلاتي الطبية أبحث عن حالة مشابهة
ولكنها كانت ساعات طويلة مضاعة .

لا إشارة من قريب أو من بعيد إلى سابقة مماثلة .
مازلت في مكاني متروكاً في غموض حيث بدأت .. لاخيظ من ضوء .
بعد كل الفحوص الطبية والتبع الإكلينيكي الدقيق .. مازلت في
مكاني .

كل ما استطعت أن أكتشفه أن هناك شيئاً ما .
الرسام الكهربائي أكد لي أن هناك شيئاً ما في مخ هذا الرجل .. ليس
ربما ولا مرضاً من الأمراض المعروفة التي درسناها ، ولكنه أيضاً ليس
الطبيعة السوية للمخ العادي ..

فما هو ذلك الشيء ؟

هل أعود إلى تفسيراتي الفلسفية فأقول إنه مخ به توليفة عصبية خاصة
مثل الراديو تلتقط الأمواج وتذيعها .

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX ؟ XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

كنت أضع أمام مكتبي نتائج الأشعة والتحليل والفحوص التي
أجريناها ، وكنت أنظر إلى صور الأشعة صورة بصورة وأتمعننا بدقة .. وأمر
بأصبعي على كل ركن في الجمجمة التي تبدو ظلالها في الصور .
لا أثر بقود إلى طريق تشخيص .. لا دليل .

الصور جميعها طبيعية . الفحوص الإكلينيكية لا تلقى أى ضوء على
الحالة . جميع الاختبارات تشير إلى شخص طبيعي مائة في المائة . الأمل
الوحيد الباقي كان الرسم الكهربائي للمخ ..

ذلك الجهاز العجيب « الألكتروانكفالوجرام » الذي وصلني من أمريكا
منذ أيام .

كانت هنا فرصته الذهبية ليكشف عن إمكانياته .

ذلك الجهاز الذي يسجل النشاط الكهربائي للمخ ويرسمه على شريط .
كل نبضة كهربائية تخرج من المخ ترسم في شكل ذبذبة على الشريط .

أم أنه لا مرض هناك ولا توليفة خاصة .. كل ما في الأمر .. أن راغب دميان استمع إلى هذه الأسطوانة الأسبانية كما سمعتها عدة مرات فرسبت معانيها وأسمائها في عقله الباطن وعادته هذه المعاني والأسماء وهو مغمى عليه فراح يهذى بها في إغائه .. كما نهذى بذكرياتنا في أحلامنا . ولكنه لم يكن يهذى .

لقد كان يتكلم أسبانية سليمة ، ويروي أحداثاً وقعت لذلك المدهور « دون سباستيان كاميللو » .

وكانت في الحديث حيوية من ينطق لغة بألفها وينطقها كما ينطقها أهلها .. لا بلبله عقل يهذى . كان في الأمر شيء .. كل التفسيرات غير كافية .

كنت أغوص في ألغاز متشابكة لا نهاية لها .. وأفكر وقد انتهيت من مرضى العيادة .

وجلست أنتظر راغب دميان على ميعاد خاص . واكتشفت فجأة أن ساعة كاملة مرت على ميعاده دون أن يحضر . وهي ليست من عاداته فهو دقيق في مواعيده . وانتابني قلق يزايد شيئاً فشيئاً .

ورأيت نفسي أنتفض من مكاني وأختطف المعطف من الشماعة وأسرع بالخروج .

وألمم المنزل ١٥ شارع ابن الوليد بمحاذيق القبة نزلت من العربة . ورحت أتلقت .

كان هو نفس العنوان الذي أملاه لي في ورقة الكشف . سألت البواب عن شقة المهندس راغب دميان .. فقال إنها شقة ١٢ في الدور العلوى .. آخر دور في العمارة .

وكان المصعد معطلاً .. فصعدت ستة أدوار على رجلي . كنت أصعد ببطء .

وأتوقف من درجة لأخرى لألث وألتقط أنفاسي .

وبينا كنت أستند على درابزين السلم وأستريح لحظة .. لاحظت سلسولا « من الماء نازلا على درجات السلم من فوق . وصعدت درجة درجة مع هذا « السلسول » الغريب وأنا أنظر إلى فوق . فضول متطلعا إى مصدر هذا الماء .

وكان الماء ينزل بشدة أكثر وأكثر ويتصاعد منه البخار كلما صعدت قترياً من مصدره مما يدل على أنه يتدفق من مصدر ماء ساخن . وأمام شقة ١٢ كان الماء والبخار ينسابان بشدة من تحت عقب الباب . وانتابني القلق . فهذه شقة راغب دميان .

ووضعت أصبعي على الجرس في اضطراب ، ودققت مرة ثم دقة أخرى ريلة .

ثم رحت أدق دقاً متوالياً بانزعاج ، وأنحبط على الباب . لا يجيب .

لأصوت بالداخل سوى صوت حنفية مفتوحة يتدفق منها الماء بشدة . ووقفت مسمراً في مكاني نهياً لخيالات متضاربه .

ماذا يمكن أن يكون قد حدث .. ماذا يجري بالداخل .
وما الواجب عمله .

أأظن واقفاً هكذا أم أكسر الباب .. أم أبلغ البوليس ؟
ولم أجد حلاً سوى أن أهول نازلاً .. وأبلغ البوليس .

• • •

وأمام الباب المكسور .. والشقة الفارقة في طوفان الماء .. تقدمنا أنا
وضابط البوليس إلى حيث يتدفق الماء .. من الحمام .

كان البانيو مملوءاً على آخره ، والحنفية مفتوحة .. والماء يسيل على
جوانب « البانيو » بملأ الشقة .. والسخان مشتعلاً .

وانتقلنا من الحمام إلى غرفة النوم .

وفي غرفة النوم .. فوجئنا بامرأة في ملابسها الداخلية منحنية على
التسريحة ، وفي يدها ملقاط حواجب .

وتقدم الضابط في حذر ورفع رأسها .. كانت شاحبة ممتعة اللون وعلى
وجهها نظرة فزع هائلة .. وقد فارقت الحياة .

وأمسك الضابط بالتليفون ليبلغ النيابة والطبيب الشرعى . هل كانت
جريمة قتل ؟

وكيف .. وبأى سلاح .. ولا نقطة دم واحدة .. ولا جرح .. ولا آثار
خفق .. ولا دلائل عنف أو اشتباك دموى .

الأثاث مرتب .. مما يدل على أن الميتة كانت في طريقها الطبيعي لتأخذ
حماماً .. وأنها أشعلت السخان وفتحت الحنفية لملأ البانيو .. وبينما كان
البانيو يمتلئ كانت هى تحمل حواجبها بالملقاط أمام المرأة .

وكانت تحمل حواجبها فى هدوء وهى تنظر فى المرآة .. حينما حدث فجأة
أن تولاهما ذلك الفرع الهائل الذى قضى عليها .

ماذا رأت فى المرآة لتتقلب سحنتها كل هذا الانقلاب .

لم تكن تقلصات وجهها تقلصات ألم ، وإنما كانت تقلصات خوف .

كانت عيناها جاحظتين محمقتين .. وعند ركنى فيها .. تلك الحركة
العضلية التى تدل على الرعب .

ولمحت فى أصبعها دبلة ذهبية .

لا شك أنها خطيته التى قال إنه فى طريقه إلى الزواج بها .

ولكن أين هو ؟

أين كان طول الوقت ؟

صورته على التسريحة يبدو فيها أكثر امتلاءً ووسامة مما رأيت . لا بد أنها
صورة قديمة .

أهو على علم بما حدث فى شفته أم أنه لم يعلم بعد ؟

وأين هو الآن ؟

وتسللت إلى حجرات الشقة الأخرى .

حجرة صالون ستيل .. وحجرة أكل .. وحجرة مكتب أقرب إلى

معمل منها إلى مكتب .. مكتب صغير منزو فى ركن ، وبقيّة الغرفة بها مائدة

كبيرة مجهزة بحوض ومواقد بنزن ، وأرفف للمحاليل الكيميائية ، وأنايب

اختبار ، وأجهزة تقطير ، وميكروسكوب موديل حديث قوته التكبيرية تزيد

على عشرة آلاف مرة .. وجهاز غريب معقد لم أفهمه .. أغلب الظن أنه

محول كهربائى ذو جهد عال .

محت الميكروسكوب موجودة شريحة بالفعل .

ووضعت عيني على الميكروسكوب .

كانت الشريحة لنسيج حي غريب يبدو أنه نسيج جيبى .

ما الذى يجعل راغب دميان يمارس كل هذه البحوث المتشعبة في الكيمياء والتشريح والباثولوجى والبكتريولوجى .. وهو كما ذكرى في العيادة مهندس كهرباء في وحدة أبحاث الراديو في قصر العيني .. ما الذى يجعل بحثه تمتد إلى كل هذه المجالات .

كنت أشعر بدهشة يمازجها الارتباب .

من هو ذلك المدعو راغب دميان ؟

وما حياته ؟

وماذا يعمل بالضبط ؟

كنت أكاد أشعر من فرط التفكير أن ورم المخ قد أصابنى .

وكان الضابط طول الوقت منكفئاً على أرض الغرفة بفحصه .. ويدون

أرقاماً وملاحظات في نوته .. وأنا أفكر بدون أن أصل إلى حل .

هل أقول للضابط إنه مريض من مرضى .. أولئـه حوّل إلى عيادتي

بـشـبـاه ورم في المخ ؟

أم تكون هذه الشهادة إفشاء لأسرار ليس من حق إفشاؤها .

إن ما يقوله المريض للطبيب سر حميم مثل الاعتراف الذى يقوله الخاطيء

للمقـبـس ولا يصح إفشاؤه .

وأغلقت فى وآثرت أن أفكر لنفسي .

وكان السكوت ثقلاً جديداً يضاف إلى همومي .

ولاحظت وأنا أنظر في وجه المرأة المتقلص من الخوف .. أن نظرتها

المرتاعة تذكرني بوجه راغب دميان حينما داهمته نوبة الإغماء .

كانت النظرتان فيهما نفس التعبير .. ذلك الرعب المحير لكأنما أطلت

العينان على سر رهيب مروع من تلك الأسرار المطلسة وراء الطبيعة .

وكنت أشعر برجفة وأنا أطل في العينين المفتوحتين .. وأعطى عيني

بيدي .. حينما سمعت الضابط يقول :

- أنت تعرفه ؟

وفوجئت بنفسى أكذب في تلقائية :

- من الذى أعرفه ؟

- صاحب الشقة .

- لا .. هذه أول مرة أدخل الشقة .

ونظر الضابط في وجهى باستغراب فأردفت موضحاً :

- جئت على استدعاء بالتليفون .. قال لى المتكلم إنه مريض جداً

وأعطاني العنوان .

- هل تستطيع أن تصف صوته ؟

- لا أذكر بالضبط .. كانت العيادة ساعتها مليئة وأصوات الشارع تغطي

على المكالمات .

ولا أعرف كيف تورطت في هذه الأكاذيب واحدة تلو الأخرى .

كنت أريد أن أحتفظ بالسـر لنفسي .

كنت أرى أن كل مايجرى في حياة هذا الرجل من حق وحدى .. من

شأنى .. لا شأن لأحد به .

وكنت أشعر شعورًا خفيًا بأنني أمام سر لا مكان للبوليس والنيابة فيه .
وتسللت إلى غرفة المعمل من جديد مشدوداً إلى الجو العلمى الذى
أحبه .

وأمام الميكروسكوب رحت أضبط العدسات مرة أخرى .. وأتأمل
الشريحة الموضوعه .. وأحاول أن أفهم طبيعتها .. كانت أشبه بنسيج
جينيى .. ولكنى لم أستطع أن أعرف على طبيعتها بالضبط فى الثوانى التى
أتاحتها اللحظة المختلصة .

وبحركة خفيفة من يدي سحبت الشريحة من تحت الميكروسكوب
وأسقطتها فى جيبى دون أن يلحظنى أحد .

ولم أنس أن أدرس فى جيبى النوتة الحمراء الصغيرة التى وجدتها إلى جوار
الميكروسكوب .

عملية سرقة واضحة .

ولكنى لم أستطع أن أقاوم الإغراء .

كانت رغبتي فى معرفة الحقيقة تغفر أمام ضميرى أى شيء .. وارتنف
صوت ضابط البوليس من غرفة النوم .

- فيه نقطة دم .

وأسرعت خارجاً .. لأراه ينحن على السجادة وفى يده عدسة يتأمل
بقعة حمراء مستديرة لا يزيد قطرها على سنتيمتر .

ولم أشأ أن أقول له إن ما يظنها بقعة دم ليست إلا بقعة « مركريكروم »
من الذى يُستعمل فى مس اللوز .

وآثرت أن أتركه فى غفلته ينسج جرائم ودماء لا وجود لها .

وبتست وأنا ألمح زجاجة « المركريكروم » على التريشة وإلى جوارها
أدوات أنس يستطیع الضابط أن يرسم بها مئات البقع الدموية والجرائم كما
يشاء خياله الخصب .

وحينما كنت أركب عربتي فى طريق العودة إلى منزلى فى ذلك اليوم
نفضت كنت أشعر بنشوة عجيبة كلما تذكرت أني أحمل فى جيبى اللغز .
تلك الشريحة التى سرقناها وعليها القصاصة من النسيج المجهول التى كانت
الشغل الشاغل لذلك الرجل راغب دميان .. ونوتة ملاحظاته وكنت أضغط
على البتزين متعجلاً الوصول إلى معمل .

كنت متفائلاً

وكنت أتخيل أن المسألة لن نحتاج لأكثر من نظرة متأمله من عدسة
ميكروسكوب .

سرطان ماذا ؟

ولكن القطاعات التي تبدو للأوعية الدموية في النسيج لا يظهر فيها التمدد والانتساع والاحتقان المألوف في السرطانات .. الأوعية الدموية طبيعية .. وعلامات الانقسام والتكاثر الخلوى لا وجود لها .

سرطان .. وليس سرطان .. ونسيج عصبى .. وليس بنسيج عصبى ..
فماذا يكون .. ؟ !

تذكرت النوتة الحمراء فأخرجتها من جيبى ورحت أقلب صفحاتها .
وأصابتنى خيبة أمل لا حد لها ، فلم تكن الملاحظات الخطيرة التي توقعتها إلا بيانات بمشتريات منزلية . وحساب الجزار والبقال والصيدلى .

وشعرت بالصداع .

وأشعلت لفافة تبغ ..

ومضيت أدخن وأفكر فى هدوء وأطفأت النور الذى أتعب عيني من طول الحملقة فى عدسات الميكروسكوب ..
كان أملاً ضعيفاً ..

نعم ..

من يدري ؟

ربما كان هو الآخر قد غادر الدنيا إلى غير عودة .. فهو الآخر يعيش على حافة كارثة .

كانت النياحة قد أخذت شهادتى للمرة الثالثة ..

وكان التحقيق ما زال يسير بدون تقدم .. لم يظهر أثر للمدعو راغب دميان وكأنه كان وهماً .

٢

كنت أضع الشريحة تحت الميكروسكوب الكبير الذى استعرت من صديقى البكتريولوجى .. وأحاول جاهداً أن أفك طلاسمها .

كان ماظهر لى فى البداية أنه نسيج جنينى ظناً خاطئاً .. فالخلايا فى تفاصيلها لا تشبه الخلايا الجنينية .. وهناك زوائد واضحة عند أطراف الخلايا مما يجعلها أشبه بنجوم مدنية . وهى صفة فى الخلايا العصبية للمخ والحبل الشوكى لا فى الخلايا الجنينية البدائية .

ولكن شكل البروتوبلازم والنواة .. وتوزيع الصبغة المستعملة مختلف عما هو مألوف فى الخلايا العصبية .

كان الأمر محيراً ..

وما كان يحير أكثر .. هو شكل النواة فى الخلية .

كانت كبيرة متوهجة أشبه بنواة الخلية السرطانية ..

سرطان ؟ !

قلب البوليس الأرض بحثاً عنه دون جدوى .

اختفى ..

تبخر ..

لا خيط .. ولا دليل .. ولا أثر يقود إليه .

الطبيب الشرعى قال فى كشفه على الجثة .. إنها حالة موت طبيعية نتيجة

فزع فجائى توقف له القلب وثلت الأعصاب ..

سكتة قلبية .. مثل السكتة التى تحدث فى الوفاة نتيجة الصاعقة ..

كيف حدث هذا الأثر الصاعق ..

ماهو ذلك الخوف الذى يوقف القلب ويشل الأعصاب كما نشلها

الصاعقة ..

أسئلة ..

مجرد أسئلة بلا أجوبة ..

وكنيت أنا الآخر أسأل نفسى .. وأفكر .. دون نتيجة .. كل الفرق أنه

كان عندى أمل فى أن يتصل بى راغب دميان ..

فى كل نوبة من هذه النوبات التى تتباهى كان يبدو وكأنه يروح فى غيبوبة

الموت .. وكأنه يخطو إلى هاوية لا قرار لها ..

نبضه الممتلىء كان يخفت حتى يصبح مهماً .. وتنفسه كان يتحول إلى

لهاث ..

وأطرافه تبرد وتشلج ..

ثم ذلك الفزع الذى يظهر عليه فتسع حدقاته فى جنون مثل حدقات

مدمنى الكوكايين وتتشنج أطرافه وتتصلب كأعواد من حديد ..

ماذا كان يرى فى غيبوبته ليفزع كل هذا الفزع ..

ثم هذه اللغة الأسبانية التى كان يتكلمها فى طلاقة كما يتكلمها أصحابها

بدون أن يتعلم منها حرفاً واحداً ..

أهى حالة عصبية أم نفسية أم روحية ؟

أهى حالة فى متناول العلوم الطبية المعروفة ؟

كان الرد على هذا السؤال قابلاً فى أدراجى .. فى صور الأشعة العديدة

التي التقطتها للرأس .. فى رسم المخ الكهربائى .. فى تحليلات الدم والسائل

المسحائى .. فى الفحوص الأكلينيكية المضنية التى أجريتها ..

وعدت إلى صور الأشعة أحاول مرة أخرى ..

وأضأت النور .. وعدت أضعها الواحدة إلى جوار الأخرى .. ورحت

أنفحصها فى هدوء ..

وفجأة ..

هبطت الحقيقة وكأنها إلهام ..

لأنى تكن إلهاماً ..

لقد تصادف أن كان على القانونوس الخاص باستطلاع الصور صورة

قديمة لجمعية عادية لرجل سليم ..

ولأول مرة أمكنتنى أن أقارن الصورتين ..

لم تكن ظلال الجمعية فى صورة راغب دميان ظلالاً عادية كما

نصورتها للوهلة الأولى ..

كانت العظام كلها أرق قليلاً من المألوف ..

ملاحظة كان من الصعب إدراكها بدون اللجوء إلى المقارنة المباشرة ،

لأن الأثر الذي لحق بالعظام لحق بها جميعاً ، فاحتفظت الصور بنسبها الطبيعية .

ما معنى هذا ؟

العظام أرق من المألوف . فراغ الجمجمة أكبر .

هل هي حالة مرضية في العظام ..

لا .. لم تكن حالة عظام بدليل عظام العنق في الصورتين . كانت عظام العنق في الصورتين متاثلة وطبيعية .

العظم سليم .

وما حدث لعظام الجمجمة ليس مرضاً بالعظام .. وإنما نتيجة ثانوية لما

حدث في المخ .

المخ ازداد في الحجم .

عظام الجمجمة تمددت ورفقت .

الذبذبات الكهربائية الخارجة من المخ ارتفعت قوتها من ٥٠

ميكرو فولت إلى ٩٠ ميكرو فولت .

هناك شيء ما حدث في المخ .

وبرق في ذهني خاطر .

إن ما حدث في مخ دميان .. المرجح أن يكون قد حدث مثل له في مخ

خطيبته .. بدليل حالة الفزع التي عاشها الاثنان .

ومن حسن الطالع أن مخ الخطيبة المتوفاة أصبح في الإمكان تشريحه

ودراسته .

وقفزت من مكاني لهذا الخاطر .

ورفعت سماعة التليفون لأطلب الطبيب الشرعي الذي أشرف على

تأنيده .

وأجابني الدكتور على الطرف الآخر من الخط .

سألته في خبث عن بعض التفاصيل في التشخيص

كنت في الحقيقة أريد أن أعرف مصير الجثة .

وكان ثثاراً بدرجة جعلتني في غنى عن استدراجه .

حكى لي أن الجثة ظلت في قصر العيني ثلاثة أيام دون أن يشرف عليها

أحد .

ثم تقدم رجل عجوز قال إنها ابنته التي خرجت من أيام ولم تعد ..

وبكى بمرارة ونسلم الجثة ووقع على استمارة التسلم بإمضاء عوض إبراهيم ..

وأنه قرأ بعد ذلك نعيّاً في الصحف للمتوفاة تحت اسم ماري عوض . فيه

أسماء جميع أقاربها بما فيهم الأب عوض إبراهيم .. وأن تشييع الجنازة

سيكون في الصباح والدفن بمقابر الروم الكاثوليك .. قرأ هذا في صحف

يوم .

وفي الحقيقة لم أكن أريد أن أعرف أكثر من هذا ..

إنها دفنت اليوم بمقابر الروم الكاثوليك .

ربما من ساعات .

ولم يكن أمامي وقت أضيعه .

كان لا بد من الوصول إلى الجثة والحصول على المخ بسرعة قبل أن

يحلل .

وارتديت ثيابي .. وأخذت عرسي .. وأسهرت إلى المقابر .. كانت

الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل . والبرد قارصاً والرياح
شديدة . والشوارع خالية تماماً .

وشعرت بالاطمئنان .

في مثل هذا الخفاء والظلمة والسكون يستطيع الواحد أن يفعل أى
شئ .

وبلغت بوابة المقابر .

وكان الحارس ينام في غرفة إلى جوار الباب .

ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة المقبرة والوصول إلى الجثة بدون معونة

الحارس .

وظلمت أطرق باب الغرفة عدة مرات قبل أن أسمع خطوة الحارس وهو
يتعثر وأسمع ثناؤه .. ثم أراه يفتح الباب وينظر إلى وقد فغرفاه في دهشة .
لم يكن غريباً على .

وسرعان ماتصافحنا في ود ، فقد كان الرجل مريضاً قديماً من مرضى
أعالجه من سنوات من حالة صرع مزمنة .

وجرى كل شئ بعد ذلك في هدوء .

صحبنى الرجل إلى المقبرة ومعه أدواته .

وصدق الرجل أنى أفعل هذا بتفويض من النيابة . وأن في الأمر سرّاً
خطيراً لا يجب أن يعلم به أحد .

ومضى وقت وهو يرفع البلاطة الرخامية .

وكان صوت معوله وهو يهوى في الصمت والخراب كأنه يدق على

أعصابى .

وأخيراً كان الصندوق يتمدد أمامى في ضوء النجوم .

هناك في قلب ذلك الصندوق كانت الحقيقة تنام .. لا يفصلنى عنها

وى عطاء حشى .

حقيقة ... !!!

وعلى ضوء بطارية صغيرة رفعت الغطاء ليفاجئنى منظر مروع .

كانت الجثة ممددة في الصندوق بلا رأس .

الرأس مقطوعة من جذورها .

وأذهلتنى المفاجأة ... وألجمت لسانى .

وبضرت بارتياح إلى الحارس .. ولكن الحارس كان يقف مثل وقد

سعت عيناه من الصدمة وراح يحملنى في الصندوق في بلاهة .

كان واضحاً أنه خالى الذهن تماماً مما حدث . وأنه أكثر منى جهلاً

بالفاعل

وسقط قلبى في ضلوعى . وكأن رأسى أنا هو الذى قطع . وتذكرت

رغب دميان .

كنت أرى يديه على الجثة .. وآثار بصماته على الصندوق . وآثار أقدامه

على الأرض المتربة

لم يكن هناك شك في أنه صاحب المصلحة الوحيد في هذا العمل .

كنت كلاً لاجرى خلف شئ ، واحد مثل كلبي صيد منطلقين خلف سر

هيب .

وكرزت على أسناني .

لقد سبقني ..

سبقني ..

كنت أشعر بخيبة أمل لأحد لها .

وأعدت الغطاء إلى مكانه .

وتركت الحارس يسوى الأرض ويضع البلاطة مكانها .

وعدت أدراسي وأنا أشعر بأن خطواتي ثقيلة وساقى ودرمتان

كان يجثم علىّ بأس لأحد له

كنت أقول للنفسى .

إذا كان هناك معنى أكيد لهذا كله . فهو أن راغب دميان حى

وأنه يعيش فى مكان ما .

وأنه لا بد سيلجأ إلى .

لا بد سيلجأ إلى .

هل كنت أطمئن نفسى ؟

السلامة : ٤

أصبح التفكير فى راغب دميان جزءاً لا يتجزأ من حياتى ، فأنا أصحو

م على وجهه المضمض الشاحب وعينييه الزائفتين .

وأنا أسمع صوته . وأهذى به فى أحلامى .

وأنا أتخيله طول الوقت فى معمله وقد انفرد بالرأس الذى نزرعه من الجنة

وراح يفحصه .

ماذا تراه قد وجد من أسرار فى تلك الحقيبة من الجلد والعظم التى اسمها

الدماغ .

وأى بحوث غريبة يجربها ؟

هذه الخلايا الحية التى اسمها المخ .. كيف ترى وتسمع وتحس وتنشم

وتفهم ..

كيف تشعر بالألم ؟

وكيف تشعر باللذة ؟

وكيف يخلق لنا المخ هذا الضوء الذى اسمه الوعى والإدراك ؟ هل المخ هو العقل ، أو أنه مجرد وسيط يستخدمه العقل ليتعقل الأشياء ؟ إن ما قاله له الطب عن المخ والأعصاب قليل ، وأقل من القليل .. فالأعصاب أدوات استشعار تنقل المؤثرات الخارجية إلى مراكز فى المخ ، كما تنقل أسلاك التليفون الكلام إلى الأذن .. وفى هذه المراكز كما فى الأذن يتم تصور هذه المؤثرات بالشكل الذى نراها به فى الواقع .

إننا نشعر بالمؤثرات العصبية على هيئة حرارة وبرودة ، وضوء رائحة ، وألم ولذة .

ولكن كيف ؟

هذه الترجمة التى يترجم بها مخنا كل المؤثرات التى تصل إليه .. هل هو ترجمة صحيحة ؟

هل الماء لا طعم له ؟

وهل الليل أسود .. والنهار أبيض ؟

أو أنها إحدى الصور الممكنة بين ممكنات لا عداد لها ؟

هل يمكن أن يكون لهذا العالم شكل آخر ؟

وهل يمكن أن نراه على صورة أخرى أكمل وأشمل وأصدق ؟

إن السر فى المخ .

إننا نبدأ وننتهى إلى المخ دائماً ، فهو المترجم الألكترونى لهذه الدنيا وهو الذى يصنع لها صورتها وشفرتها . فإذا أردنا أن نرى للكون صور أعمق وأصدق من التى نراها .. فلا سبيل سوى أن نفك هذا الجها

الألكترونى الذى اسمه المخ ، ونعيد تركيبه ليكون أقدر على هذه الرؤية الجديدة التى نطلبها .
إنه المخ دائماً .

حقيقة الأسرار ومفتاح جميع هذه الرؤى السحرية .

المخ أولاً إذا أردنا أن نعرف حقيقة أى شىء .

وهو يعلم هذا جيداً ذلك الرجل .. راغب دميان . وربما كان فى هذه اللحظة يستخرج المخ من الجثة ويضعه على المشرحة ، ويقطعه جزءاً جزءاً يفحصه بذلك الميكروسكوب الذى يكبر عشرة آلاف مرة .

وهو قد توصل إلى شىء .. شىء لا أعلمه .. ولكنه خطير .. يستطيع أن يوسع نطاق المعرفة والرؤية والإحساس .

وربما أوصلته هذه البحوث إلى رؤى جديدة مفزعة .

نعم .. كان السر هناك تحت خبطات مشرطة فى تلك اللحظة وأنا هنا ألهث أمام أبواب مغلقة .

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة .. وأنا مازلت مسهداً .. أستجدى النوم بلا فائدة .

وفكرت أن أجرب الطريقة المألوفة فى جلب النوم .. بالقراءات لسخيفة .

وبدأت أقلب أكوام الجرائد القديمة إلى جوار الفراش .. أقرأ لإعلانات ، والوفيات ، والمقالات المملة ، والحوادث التى قرأتها قبل ذلك رات ومرات .

وبدأت الحروف تتراقص أمام عيني .. وبدأت أنعس .

وكنيت أوشك أن أنام حينما التقطت عيناى عنواناً فى صفحة الحوادث
فى جريدة قديمة عن سرقة عشر إبر راديوم ثمنها أكثر من عشرين ألف جنيه
من قسم أبحاث الراديوم بالقصر العيني .. وقد أبلغ عن السرقة مدير القسم
المهندس راغب دميان .

وطار النوم من عيني فجأة .. وقفزت من فراشى .
ورحت أقرأ الخبر مرة ومرات وأنا أفرك عيني وأعود فأقرأ من جديد
الاسم بالنبط الأسود .. راغب دميان .

وقرأت تاريخ صدور الجريدة ..
كانت صادرة منذ ثلاثة سنوات .
ولا أدري لماذا احتفظت بها كل هذا الوقت ربما بسبب هذه الإحصائية
المنشورة عن الأمراض العصبية فى مصر والموجودة بنفس العدد .
من كان يظن أنى يمكن أن أضع يدي على سر خطير بهذه البساطة
إنه هنا .
راغب دميان بعينه .

وهذه السرقة التى أبلغ عنها هى من صنع يديه .
فلا أحد يسرق راديوم إلا لص عالم ، وبخاتة يعرف فوائده ويتولى
استخدامه والاستفادة به .
إن اللص العادى لا يمكن أن يمد يده إلى راديوم .
وأن يبيعه إذا سرقة ؟ وكيف .. ؟ وماذا يعنى الراديوم بالنسبة له ؟
لا شئ .

إن هذه السرقة وثيقة الصلة بالبحوث التى كان يقوم بها راغب دميان
منذ ذلك الحين .
وربما كان هذا التاريخ هو بداية اشتغاله بهذه البحوث . وكتبت التاريخ
فى ورقة .

وقطعت قصاصة الخير من الصحيفة واحتفظت بها .
لقد تقدمت خطوة .
إن راغب دميان لابد يحتفظ بهذه الإبر الثمينة من الراديوم فى مكان آخر .
بئر بيته وغير معمله الذى اقتحمه البوليس ..
ومعنى هذا أن معمله الحقيقى وأدواته فى مكان سرى مخفى عن
أعين .. وفكرت ..

إن هذه الإبر الثمينة من الراديوم المشع سوف تفضحه .
وكتبت ملحوظة فى نوتة بشراء عداد جييجر*
عن طريق هذا العداد الذى يكشف عن اقل إشعاع سوف أستطيع
معرفة مكان المعمل السرى ومخبأ إبر الراديوم .
* * *

كان أول شئ فعلته حينما نيقظت فى الصباح .. هو شراء عداد جييجر .
ورسمت خطة محكمة لتقسيم القاهرة إلى عشر مناطق .. أذرع كل منطقة
عربة فى يوم .. أتجول فى كل شبر فيها .. وأتمسك طريق .
وسوف يتولى العداد كشف المنطقة التى فيها الراديوم .. ثم يدلنى على
بيت .. والغرفة .. والخزانة .
إن يكلفنى الأمر أكثر من الصبر والمثابرة .

وبدأت اليوم الأول بحماس .

وظللت أتجول في ضاحية حدائق القبة .

فكرت أنه ربما اختار مجناه قريباً من بيته .

ولكن بحثي لم يسفر عن شيء .

كانت عيناى على مؤشر العداد طول الوقت ولكنه كان ينام نوماً ثقيلاً في مكانه .

وفي اليوم التالى كنت أذرع شوارع المعادى .

وفي اليوم الثالث كنت في الدق .

وفي اليوم الرابع كنت في الجزيرة

وفي اليوم الخامس كنت في مصر الجديدة .

منطقة بعد منطقة رحت أذرعها في صبر وأناة ، بدون جدوى . فكرت أنه ربما كان يضع إبر الراديو في خزانة من الرصاص مزدوجة الجدران . ويمثل هذا الاحتياط يستطيع أن يمنع الإشعاع من التسرب بقدر يسمح باكتشافه .

كان مثل هذا الاحتياط بديهيًا من مهندس أشعة يعلم أنه سارق

وكان معنى هذا أني ألثت وراء شيء لا وجود له .

وصرفت النظر عن هذه المطاردة .

ونخيم على اليأس من جديد .

ولكن لا أدري لماذا برقت في ذهني من جديد حكاية النوتة الحمراء

لماذا فكرت فجأة أنه من غير المعقول أن تكون كل وظيفة هذه النوتة

هي إدراج حسابات الجزار والبقال والصيدلى ؟

ولماذا توضع مثل هذه النوتة بجوار المكروسكوب ؟

وبسرعة أخرجتها من جيبى ورحت أتصفحها من جديد .

وماكدت أقلب الصفحات الأولى حتى فوجئت بصفحات في الوسط

كتوبة بالرصاص ، فيها معادلات كيميائية .

وفي صفحة أخرى ملاحظات متناثرة على شكل خواطر .

لوحظ أن العصب البصرى يحتوى على أكثر من مليون خط عصبي .

وأن الإشارات العصبية تنتقل في الأعصاب الطويلة مثل أعصاب

ساقين عن طريق محطات تقوية كهربائية كيميائية ، وأن الليفة العصبية ليست

في الواقع إلا سلسلة من محطات التقوية تماماً كما في الكابلات التي تنقل

إشارات التليفونية عبر البحر .

- كيف تبقى البطاريات في الخلايا العصبية مشحونة على الدوام وفي

لحظة صالحة للإرسال والاستقبال طول العمر .. هذا هو السؤال .

- في الوقت الذى تنقبض عضلات القلب ٧٠ مرة في الدقيقة .. ولا

يكاد تنقبض عضلات المخ والأصداغ إلا مرة كل عدة ساعات لإغلاق

المخارة وفتحها .. لوحظ أن عضلات أجنحة الحشرات تنقبض حوالى ٥٠٠

مرة في الثانية ، المادة التي تتكون منها عضلات هذه الحشرات هي

الأكوميسين (هي مادة بروتينية) ..

كيف يمكن أن تتم العمليات الكيميائية في هذه العضلات بمثل هذه

سرعة والكفاءة ..

- الجسم الصنوبرى في المخ .

- الأثر الإشعاعى على الكروموسومات .

وتحت كلمة الجسم الصنوبرى ثلاثة خطوط
حاولت أن أفهم المعادلات الكيميائية ولكن معلوماتى فى الكيمياء
تسعفتى ..

ولماذا الاهتمام بالجسم الصنوبرى بالذات .
أنا أعلم من دراستى للتشريح أن الجسم الصنوبرى هو زائدة فى المخ بلا
وظيفة معروفة .. وكان معتقداً فى الماضى أنها مركز الاتصالات الروحية .
وهو اعتقاد خرافى رفضه العلماء من زمن .

ما الذى يجعله يفكر فى الجسم الصنوبرى . ويضع تحته ثلاثة خطوط
واهتمامه بالكروموسومات (وهى باقلاط الصفات الوراثية) وبتأثير
الاشعاع عليها .. ومادة الأكتوميسين !
هل هذه المعادلات الكيميائية هى محاولات للوصول إلى تركيب مادة
الأكتوميسين ..

كانت الملاحظات كلها مكتوبة على شكل خواطر عابرة .. ولكنها
فتحت أمامى عالماً من الغوامض التى يعيش فيها ذلك الباحث الغربى .
ما الذى يجرى وراءه دميان ؟ .

٥

إن ما يجرى وراءه راغب دميان هو اكتشاف سر الحياة ..
إن التكنمات القليلة المكتوبة فى النوتة تشير إلى هذا .. فبحوثه تدور
حول سر التفاعلات الكهربائية الكيميائية فى الخلية العصبية .

كيف تتولد التنبيهات الكهربائية فى الخلية العصبية ؟ . وكيف تنتقل هذه
لتنبيهات إلى العضلات .. وكيف تنقبض هذه العضلات فى حشرة بدائية
حمسائة مرة فى الثانية ؟ .

من أين تنبع هذه القوة المجنونة التى تحرك جناح حشرة مثل مروحة
متأثرة ؟ وما سر هذه المادة السحرية « أكتوميسين » التى تتألف منها العضلة
لحية ؟ « والكروموسومات » ؟ لغز الحياة المظلم .: تلك القضبان الدقيقة
فى أنوية الخلايا . والتى لا ترى إلا بأقوى الميكروسكوبات .. تلك القضبان
تجنى تحوى على كل الصفات الوراثية للإنسان - وما هو أكثر - أنها تكاد

تكون أرشيفاً لتاريخ الحياة كله مسجلاً على المادة الحية . منتقلاً معها من جيل إلى جيل .

إنه يحاول أن يكشف سرها بالتأثير عليها بالإشعاعات .

وأخيراً تلك الزائدة الغامضة في المخ البشرى (الجسم الصنوبرى) التى تتدلى مثل ترمسة صغيرة في وسط المخ بلا وظيفة وبلا دور معروف . هل يمكن أن يكون قد وصل إلى سرها ؟ ! ماذا اكتشف ذلك الرجل الهضم الشاحب ؟

إنه يسرق .. ويقتل .

نعم .. ربما كانت هذه الوفاة التى بدت وفاة طبيعية هى جريمة قتل دبرها بوسائله ليحصل على مخ الضحية .

ربما كانت تجربة رهية من تجاربه .

وربما كان في طريقه الآن إلى جريمة أخرى .

كنت أقود عربتي بسرعة في طريق مصر - إسكندرية الزراعى ذاهباً إلى طنطا في مشوار عائلي .

وكنت غارقاً في تساؤلات لا آخر لها وقد استقرت قدمي على دواسة البنزين على آخر سرعة حينما ظهرت أمامي فجأة عربة نقل كبيرة . وضغطت بآخر قواي على « الفرملة » وانحرفت في الاتجاه الآخر لأنزل أنا والعربة في حقل محروث حديثاً .

وكنت حسن الحظ لأن العربة غاصت في هدوء وأمان في التربة المحروثة .. وكتبت لي النجاة من موت أكيد .

وتصبب العرق على وجهي وشعرت بأصابعي باردة ثلجية مبتلة ورحت

أمسح وجهي بأنامل مرتجفة .

وكان قد تجمع حول العربة بعض الفلاحين راكعوا يدفعون العربة التي عرست في التربة الرملية .

وخطوة .. خطوة .. بدأت العجلات المغروسة تتحرك .. ومددت يدي لأدير « المارش » .

وحانت مني التفاتة إلى عداد جيكر الذي وضعت على عارضة العربة تسعت عيناي من المفاجأة .

كان مؤشر العداد قد اندفع على الميناء مشيراً إلى وجود إشعاعات راديو من قرب .

معنى ذلك أن محباً دميان عن قرب .

إشعاعات راديو من قرب !

معنى ذلك أني على بعد خطوات من السر .

ربما دورة أو دورتين بالعربة في المنطقة .. وأستطيع أن أحدد بالضبط مصدر تلك الإشعاعات .

ونظرت حولي ..

كان الطريق الزراعى خالياً ..

لم تكن هناك آثار لمساكن سوى « فيلا » صغيرة على بعد خمسمائة متر من المكان ..

لم يكن هناك مجال لاحتالات عديدة .

وإنما هو احتمال واحد في الغالب ، هو أن هذه « الفيلا » في هذا

الطريق المقطوع هى المحب السرى .

وكان معنى هذه الإشعاعات القوية أن الراديوم موضوع في مكان مكشوف وليس محفوظاً في خزانته الرصاصية التي تحجب الإشعاع .. وربما كان موضوعاً في تجربة بالفعل .

وتوترت حواسي كلها وأنا أتطلع إلى النوافذ ذات الستائر المسدلة وأوقفت العربى على جانب الطريق على بعد كاف حتى لا يثير الريبة . وتسللت إلى « الفيلا » لأصعد السلم القليلة في المدخل .. ثم أقف أمام الباب أتلفت حولي في حيرة . هل أدق الجرس ؟

لا ..

إن أى إشعار بطارق غريب سوف يعطى الرجل وقتاً كافياً ليخفى معالم كل شيء .

لا بد من وسيلة للمفاجأة ..

لا بد من الدخول من طريق آخر غير الباب .

لو أنى التفتت بالعربى حول « الفيلا » ووقفت بها تحت البلكونة الخلفية لأمكننى أن أصعد فوق العربى وأقفز منها إلى البلكونة كالقطة بأقل جهد يذكر .

وفي لحظة كنت أدير بالعربى ، وأقف بها في المكان المناسب وأصعد عليها ثم أقفز لأصبح في البلكونة لا تفصلني عن الداخل إلا ستائر حريرية هفافة .

وأزحت الستائر في حذر وأدخلت عيني متلفتة لاكتشف أن البلكونة لغرفة نوم ، وأن غرفة النوم خالية .

كانت هناك صالة واسعة وممر وغرفة مضادة في آخر الممر ، وباب الغرفة مفتوح . ويبدو منه جهاز « أتوكلاف » كبير .

إنه المعمل .

ولا بد أنه عاكف الآن على العمل .

هل أدخل ؟

أو أختبئ حتى يخرج لأفتش بحرية في كل شيء ؟ وآثرت الاختفاء . وعدت إلى غرفة النوم لأتمدد تحت السرير وقد أصغت بكل أذني إلى كل حركة .

ومرت ساعة كثية شعرت فيها أنى أتلعج .

ولم أسمع خلال هذه الساعة الطويلة حركة واحدة تدل على وجود حياة إلى جوارى .

وفكرت ..

ربما كان في الخارج وقد أشعل النور قبل خروجه ليوهم أى لص من نصوص الطريق أنه موجود .

وخرجت من مخبئي بهذا الأمل الضعيف وتسللت إلى الصالة ثم إلى الباب المفتوح .. لأطل في خوف .. واكتشفت أن المعمل كان خالياً طول نوقت .

وبعد دقيقة أخرى من التجول الحذر تبيننت أن البيت خال بالفعل ، وأن صاحبه في الخارج .

وله أشأ أن أصبح لحظة .

كان المعمل هو هدفي .

وفي مكان واضح على يمين الباب شاهدت المنح الذي أنحت عنه في
حوض فورمالين .

وسطرة واحدة اكتشفت أن المنح مقصود قطعاً طويلاً . وأن جسم
الصبوري منوع منه .

وعلى مائدة أخرى شاهدت منحنياً آخر . ثم ثالثاً ورابعاً في الحوض
فورمالين . وقد قطعت كلها قطعاً طويلة ونزعت الأحشاء الصبورية منها .
وتعمد الدم في عروق .

هل أنا أمام سفاح مخون يقتل صحابه الحكمة . ويتحد من الأحكام
البشرية خية حقلاً لتجريمه .

أو أن ما اكتشفه ذلك الرجل من أسرار جعله يستلزم بكل قبعة بساطية
في سبيل أن يضع يده أخيراً على نعر الخية .

مصدر مدمي

كأن هذا مولد للكهرباء الاستاتيكية

« مشعات » وأبليت تقطير متعددة وأصماغ وأحماض وقلوبيات ومحبيل
عذرية ورحم من صغيرة ليرغ الأسجة الحية وميكروسكوب

وفي بركن الخزينة الرصاصية المزدوجة الجدران التي توضع في
الراديو .

وكانت خزينة مفتوحة وخالية .

وفي الزكن الآخر كرسي عجيب . يشبه كرسي طبيب الأسنان مشتهر .
على جانبيه روافع عديدة . وعند رأس الكرسي ثلاثة أنابيب زجاجية مفرعة
شبه أنابيب أشعة المهبط التي توحد في أجهزة أشعة إكس

والجالس في هذا الكرسي يمكن أن يكون هدفاً لأشعة مركزة تأتيه عن
يمينه وعن يساره ومن خلفه . . . ثلاث حزم من الأشعة تنعكس من ثلاثة
عواكس لتتركز في نقطة واحدة في رأس الجالس على الكرسي . . يمكن أن
يحددها المشرف على العملية مسبقاً عن طريق الروافع المتعددة المحيطة
بالكرسي . . وهي روافع مزودة ببراجل دقيقة لقياس قطر الرأس ومحيطه .
جهاز غريب . . لم يسبق لي أن رأيت مثله .

وبعض أجزاء الجهاز مصنوعة محلياً .

إنه غالباً جهاز مخترع .

ولكن أي نوع من الأشعة يطلقه هذا الجهاز الجهني . .

هل هي أشعة راديو ؟

إن إير الراديو لا مكان لها في الجهاز . .

والأنابيب الزجاجية المفرغة تختلف في مقاييسها عن أنابيب أشعة إكس
معروفة .

إنه يطلق إشعاعاً خاصاً ذاذبذبة عالية التردد . . ربما إشعاع « جاما » أو
إشعاع « بيتا » أو أي لون من ألوان الإشعاعات القصيرة الموجة ، وربما كان
يستخدم لوناً من النظائر المشعة .

وكيف يتأتى له الحصول على النظائر المشعة بدون معونة مفاعل ذري ؟
ولاحظت وجود « بارافان » وراءه شائعة . ربما كانت وظيفته أن يخلع
الزائر ثيابه من خلفه ويعلقها على الشائعة استعداداً لفحوص طبية وكيميائية
معينة .

شيء مريب .

ولاحظت أن « الباراقان » يؤدي أيضاً إلى باب في الخلف . والباب يفتح على غرفة مربعة .. بها جهاز آخر غريب يشبه مفاعل ذرى صغير . ولكنه ليس مفاعلاً ذرياً بالمعنى العلمى المفهوم ..

وفى مركز الجهاز بومبة راديوم .. بها إبر الراديوم المفقودة .. وكان من الواضح أن ذلك الرجل توصل إلى عدة مراحل يحطم فيها المادة إلى إشعاعات .

وأنه يستخدم هذه الإشعاعات في تجاربه على المخ الحى .. ولكن ما الداعى إلى مولد الكهرباء الاستاتيكية .. وما دوره فى العملية .. وأجهزة التقطير والأصباغ والمحاليل العيارية ومواقد بنزن العديدة ! ؟ ..

لا بد أن هناك عملية استخلاص كيميائية أخرى لها أهميتها .. ووضعت عيني على الميكروسكوب .

وفوجئت برؤية الميكروسكوب يسبح فيه عدد هائل من الحيوانات المنوية ..

لم تكن حيوانات منوية آدمية .. وإنما حيوانات منوية مستخلصة من مثانات ضفادع فى الغالب .

وتأكد استنتاجى حيناً رأيت بويضات ضفادع متعددة فى نفس المجال الميكروسكوبى .

كان معنى هذا أنه يحاول مشاهدة عملية تلقيح البويضة على الطبيعة وعملية الانقسام والتخليق الجنينى . ودور النواة والكروموسومات فى العملية .

وكان مؤشر الميكروسكوب يشير بالفعل إلى نواة البويضة وإلى

كروموسومات .. وفهمت من وجود سخّاحة بها سائل أزرق إلى جوار ميكروسكوب أنه يحاول أن يجرب دور المؤثرات الكيميائية المختلفة على الكروموسومات .

إنه معمل باحث متعمق فى الطبيعة الحية ..

وكانت على المائدة كراسى مذكرات ..

ومددت يدي لأفتح الكرسي .. ولكن يدي تجمدت مكانها .. فقد

سمعت المفتاح يدور فى قفل الباب وأرجل مسرعة تدخل ..

وتلفت فى ارتباك أبحث عن مكان أختبئ فيه ..

ولم أجد أمامي إلا « الباراقان » .

وأسرعت أختبئ خلفه وكنمت أنفاسي .. فى الوقت الذى دخل فيه

دميان ومعه رجل آخر كبير الرأس .

وكان دميان يبدو أشد نحولا وأشد شحوباً مما كان ..

وسمعتة يقول لزمائره وهو يشير إلى الكرسي الذى يشبه كرسي طبيب

الأسنان .

- هذا هو الجهاز الذى سيشفيك من الصلع .

- ربنا يجعل فى يدك الشفا .

- ياذن الله الاعتماد على الله .

وأخذه من يده مردفاً :

- اخلع الطاقة من على رأسك وتعال اقعد هناك وأشار إلى الكرسي .

وخلع الرجل الطاقة ولاحظت أن رأسه أصلع تماماً .

وعرفت الخدعة ..

إن دميان استدريج الرجل الأصلع يزعم أنه سوف يعالجه من الصلع ..
وبهذه الطريقة سوف يضعه على الكرسي ويسلط الأشعة الجهنمية على مخه ..
ويكيّفه كما يشاء في الوضع الذي يختاره .. ليكون موضوعاً لتجربته وربما
لخرمته فيما بعد حينما يصبح المرحوم ممحاً في أحد أحواض الفورمالين المتراصة
على المائدة ..

كنت على وشك أن أشهد بعيني جريمة قتل بشعة ..
وفكرت بسرعة .. على حين جلس الرجل الأصلع على الكرسي . وأخذ
دميان يقيس رأسه بالبراجل العديدة المثبتة في الروافع .. ويدوّن المقاييس في
وثقة .. ثم يعدل من وضع أنابيب الأشعة ويغير الزوايا العاكسة لضبطها
على المسافات المطلوبة .

ثم فتح أحد الأدراج وأخرج حقنة معقمة .. ملأها بسائل أزرق .
بشبه السائل الذي في السحاحة . وحقنها في وريد الرجل ... ونظر إلى
ساعته قائلاً :

- بعد عشر دقائق سوف أبدأ العلاج .

وسألت نفسي وأنا أفكر بسرعة : ولماذا عشر دقائق بالذات ؟
وأسعفتني ذاكرتي الطيبة .

إن هذه هي الدقائق المطلوبة لتصل المادة المحقونة في الدم إلى الجسم
الصنوبري في المخ ويبدأ فعلها .. وبعد هذا يبدأ العلاج ..
ولن يكون العلاج إلا تسليط هذه الأشعة الجهنمية من زوايا ثلاث على
الجسم الصنوبري .

بعد دقائق تبدأ جريمة رهيبية .. وأنا واقف أتفرج .
لا بد من عمل ..
لا بد من عمل ..

ولكن الانتظار طال ولم يعد التيار إلى حاله .. وأنا أتنفس الصعداء في
خبيء ..

ومرت ساعة ترقب طويلة مملة .
ورأيت دميان يضيء بطارية صغيرة ويقول لزمته :
- يبدو أن التيار سيظل مقطوعاً طول الليل ..
بحسن بنا أن نؤجل العلاج للغد .
- كنت أريد أن أنتهى من العلاج وأستريح .
- ليس أمامنا حل آخر .

ورأيت الاثنين يخرجان .. وسمعت الباب يفتح .. وخطوات الاثنين تنزل
السلم .. وتغيب في الطريق .
وفكرت بسرعة .

إن وجودي وراء البارافان يعطينى الفرصة لأراقب كل ما يجرى في الغرفة
ويعطينى الفرصة في نفسى الوقت لأن أطفى النور وأهرب في الظلام من
الباب الخلفى إذا دعا الأمر .

كان مكاناً مناسباً يجعلنى وسط الأحداث باستمرار
ولم يكن فى نيتى أن أواجه راغب دميان .

كنت أريد أن أتركه يعمل بحريته تحت وهم أنه وحيد فى معمله ..
لأعرف منه كل شئ .

ولهذا قررت البقاء فى مكانى .

ومرت دقائق ظلتها ساعات .

ثم سمعت المفتاح يدور فى الباب وخطوات دميان داخلة ..

1

انقضت الدقائق العشرة ..

وبدا دميان يوصل التيار الكهربائى ويدبر أزرار الجهاز ..
وأضاءت أنابيب أشعة المهبط الثلاث بوهج خافت .. وارتفع أزيز
الآلة الجهنمية .

وتلفت حولى فى دعر .

واكتشفت أن سكينه التيار الكهربائى ورائى .

كانت أشبه بطوق نجاة يلقى إلى فى آخر لحظة .

وبسرعة فصلت السكينه فانطلقت الأنوار وغرقت الغرفة فى ظلام

دامس وسمعت دميان يقول فى ضجر :

انقطع التيار مرة أخرى .

ثم يردف فى غيظ وقد أعد نفسه للانتظار :

- أمرنا الله ..

كان وحده هذه المرة .. وشعاع البطارية الصغيرة يلمع في يده .
وبحركة خفيفة أعدت السكينة إلى مكانها .. فتلاأت الأنوار في
المعمل . وسمعت دميان يمحصر بشفتيه في ندم :
- لو أننا انتظرنا قليلاً ..

ورأيته يفرك يديه وينظر إلى المصباح المضيء في عتاب .. ثم يفتح
الكراسة ويطل في الميكروسكوب ثم يلقى بالشرحة التي عليها الحيوانات المنوية
في البلاعة .. ويفتح صندوقاً يستخرج منه ضفدعة حية يشقها بمشرطه
بسرعة .. ليفرغ ما فيها من حيوانات منوية على شريحة جديدة يضعها على
الميكروسكوب ثم يمحى يلاحظ .. ويدون ملاحظاته بسرعة .

ويمد يده إلى السحاحة ويفتح صنورها فتتزل قطرات قليلة زرقاء من
القطارة على شريحة الميكروسكوب .. ويعود إلى الفحص وتدوين
الملاحظات .

وبعد ساعة أخرى من العمل المتواصل رأته يقف وينظر حوله متعباً
ويمسك برأسه ويفركها ويفرك عينيه كأنما ليحاول أن يطرد نعاساً .. ثم رأته
يخرج حقنة من الغلاية يملؤها بالسائل الأزرق ثم يعرى ذراعه ويضغط فوق
مكان الوريد بقطعة من الجلد ثم يفرس الإبرة بمهارة وسرعة ويحقن نفسه .
وراح ينظر إلى ساعته وبعد مرور الثواني والدقائق .

وبعد عشر دقائق كان يتجه نحو الآلة الجهنمية ثم يجلس على كرسيها
ويوجه أنابيب الإشعاع الثلاثة ، واحدة إلى جبهته ، والثانية إلى جانب من
رأسه ، والثالثة إلى الجانب الآخر .. ثم يضغط على الأزرار فتضيء
الأنابيب الثلاثة بوهج خافت . ويدوى ذلك الأزيز الرهيب .

ونحمد الدم في عروقي وأنا أشاهد مايجرى أمامي .
إنه يجرى تجربة الموت على نفسه .
إنه نفس السائل الذي حقن منه في وريد الرجل .. ربما نصف الكمية
ولكنه نفس السائل .

وهاهو ذا يجلس مكانه ويسلط الأشعة الرهيبية على محه .
هل بإمكانه أن يتحكم في مقدار جرعة الأشعة عن طريق هذه الأزرار
إلى جواره .
أظن أنه بإمكانه أن يفعل هذا فهناك أكثر من عداد للأمبير والقولت
على واجهة الجهاز .

ورأته يدخل في نوبة تشنج فتتصلب عضلاته كأعواد من حديد وتظهر
في عينيه تلك النظرة الهائلة من الذعر وكأنه يرى أبواب الجحيم تفتح أمامه .
ثم يدخل في غيبوبة كاملة يسرخی فيها كأنه في نوم عميق .
ثم سمعته يتكلم .

كان يتكلم بنفس النبرات الهادئة الواضحة كما كان يتكلم حينما اعترته
النوبة في عبادتي .

وكان يتكلم باللغة الأسبانية السليمة كما حدث تماماً في المرة الأولى ..
واستطعت أن أترجم ذلك الكلام الذي يوجهه إلى دون سيباستيان
كاميللو .

- يا صديقي إن ماحدث في ذلك اليوم مازال محفوراً في رأسي .. لم تكن
مفاجأة لي أن ينفجر اللغم في الوقت والساعة التي انفجر فيها .. لقد كنت على
عم بكل شيء .. وكنت أرى اللغم أمامي .. كنت أراه بعيني هاتين .

وتغيرت نبرته تماماً وكأنما قد لبسه شخص آخر .. شخص أجنبي النبرة
لاهث الأنفاس ، هو دون سياستيان .

- لا أصدق .. يا إلهي .. هل يمكن أن يكون هذا معقولاً .

- هناك حالة نفسية لا يعرفها إلا من عاش في الحرب مدة طويلة ..
حالة تستبد بالجندي فإذا به يندفع ليلقى بنفسه إلى الهلاك وكأنما يحلوه دافع
باطني إلى الخلاص بنفسه من كل هذا الجنون .. فإذا به يدخل في خط النار
ويمشي على الألغام ويسعى إلى الموت مفتوح الذراعين .

- دون ميجولو فارجا أنت دخلت بنا في حقل ألغام .. وأنت تعلم أنك
داخل في حقل ألغام ؟

- نعم كنت أعلم .

- دون ميجولو فارجا أنت مقبوض عليك .

وسمعت ضحكة مجلجلة من دون ميجولو فارجا .

- تقبض على ماذا ؟ ؟ ! ! ! ألا ترى أنني مقبوض على بالفعل في
جاكّة جيس وينطلون جيس منذ شهور وأنا لا أحرك ذراعاً ولا ساقاً ؟
تقبض على الجيس لتضعه مرة ثانية في الجيس ؟

وعادت الضحكة المجلجلة تدوي مرعبة في الغرفة :

- وكيف ستنفذ أمر القبض يا جاويش سياستيان كاميللو .. أنسيت أنك

تنام إلى جوارى مقطوع الذراعين في الجيس مثلي .

وسمعت دون سياستيان يزار ..

- سوف أقبض عليك بأمر القانون .

وعاد دون فارجا يضحك .

- القانون انتهى العمل به من زمان أيها الجاويش .. أنسيت أننا هزمنا
في الحرب . وأن هناك قانوناً آخر الآن في الحكم .

وعاد يضحك ضحكة الباردة المرعبة ..

- انظر حولك .. إننا الآن أسرى ولسنا أبطالاً .. وهذه الأعلام المرفوعة

ليست أعلامنا ... لقد انتهينا مع الدنيا التي انتهت .

وسمعت زئير دون سياستيان ..

- أنت مجنون .. مجنون .. مجنون ..

- ثم تحول الزئير إلى عويل وأنين وبكاء محقق وضربات منهدة ..

- وما العمل .. وما العمل ؟

- سوف نموت .. سوف نموت .

وسمعت صراخ دون سياستيان .

أنا لا أريد أن أموت .. أنا أريد أن أعيش . أنا أريد أن أعيش .

واختفى الصراخ ليتحول إلى نسيج مكتوم .

وكنت أرى دميان يهتز بالنسيج الذي يخرج من بين جنبه .

كان من الواضح أنه مجرد أداة لهذه الأصوات الغريبة التي تخرج منه .

مجرد بوق .. أو راديو .. أو أسطوانة .. أو شريط تسجيل ..

هل هي أرواح .

ومن هو دون كاميللو ودون فارجا ؟

هل لها وجود ؟

ورأيت راغب دميان يفتح عينيه ببطء ويتلفت حوله . ثم يمد يده في

ضعف فيضغط على مفتاح فينطلق الوهج المشع ويتوقف الأزيز .

واكتشفت أن هناك جهاز تسجيل صغيراً كان يسجل ما يجري طول الوقت .

وكان وجه دميان شديد الشحوب وعيناه حمراوين مثل كأسين من دم .
ورأيتة يحيل على ترموس صغير يفتحه ويخرج منه جرعة شرهة .
ورأيتة يدير جهاز التسجيل ويستمع إلى الأصوات التي سجلها في أثناء غيبوته ويدون ملاحظات في نوتة .

ثم يتشاءب ويقوم متعباً .. وينظر في ساعة يده ويمسح على جبهته ثم يطفىء النور ويخطو إلى غرفة النوم .

ولم أتحرك من مكاني حتى سمعت صوت باب غرفة النوم يغلق .
وكانت أول فكرة خطرت لي أن أسرق كراسة المذكرات ولكنني خفت أن يتيقظ في الليل ويدخل المعمل فيكتشف السرقة .. وربما استبد به الخوف فهجرت محبأه وفقدت أثره إلى الأبد .

ولهذا آثرت أن أترك كل شيء على حاله ..

وانسحبت عائداً في خفة من حيث أتيت .

ومع أول نسمة من هواء الشارع البارد برق في ذهني خاطر .
أن اتصل تليفرافياً بسفير مصر في أسبانيا ، وهو صديق عزيز . أسأله كل ما يستطيع معرفته بشأن دون ميچولو فارجا ودون سباستيان كاميللو .

وهل كانا ضمن جنود الحرب الأهلية الأسبانية وماذا كان مصيرهما .
كان أملاً واهياً ولكنني تعلقت به .

وكانت الساعة العاشرة مساءً تدق فوق رأسي وأنا أكتب آخر كلمة في التلغراف وأسلمه إلى موظف المكتب .. والمطر ينزل رذاذاً في الشارع وأنا

أقود عربتي في طريقى إلى البيت .. والشارع يلعب في المطر .. وعقلي سابح في أنف فكرة وفكرة .

هل أنا أهذى ؟

هل كان هذياناً كل ما رأيت وسمعت .. هل هو كابوس .. هل أنا أحلم ؟

ذلك الحديث بين اثنين لا وجود لهما .. دون كاميللو ودون فارجا ..
وهو حديث يبدو منه أنها يتكلمان من سريرين متجاورين في مستشفى .
وأتهما أسرى حرب . وأتهما جرحى . وموضوعان في الحبس . وأتهما يصارعان الموت .

وآخر كلمة في الحديث هي صرخة دون كاميللو بأنه يريد أن يعيش .
من الواضح أن أسبانيا لا تحوّل حرباً .. وأن الحديث هو حديث عن حرب انتهت .. أغلب الظن أنها الحرب الأهلية الأسبانية . الحديث كله مجرد ماضٍ بعث حياً على لسان دميان الذي كان أشبه بوسيط .

هل ممكن ؟

هل ممكن أن تعيش الأصوات في الجو هذه السنوات حتى تجد وسيطاً فتعود لتبعث من جديد على لسانه .

أم أنها صرخة الإرادة المتشبثة بالحياة هي التي أعطت لهذا الماضي الذي نعلمه رخصة الحياة من جديد .

هل هي معجزة إرادة .. وصرخة إصرار ؟

وإرادة من ؟ !

إرادة رجل مات .. ومن المفروض أن تكون إرادته قد ماتت معه
هل أنا أعود فأهذى من جديد ؟
إنه لشيء مريب حقاً

GGGGGGGGGG Y QQQQQQQQQQQ

كنت أروح وأغدو في غرفتي التي أغلقت بابها .. ثم أعود فأجلس في
فراشي .. ثم أقوم فأقعد أمام مكتبي .. ثم أعود فأخط بعض الحروف على
الورقة .. أفكر وأكد ذهني ، وكأنني أمام لغز من الكلمات المتقاطعة لا تلتقي
فيه كلمة على كلمة .. أحاول أن أستجمع الحقائق الغريبة المتناثرة في هذا
اللغز المتشابك .. من أول اليوم المشوم الذي طالعت فيه وجه دميان .
جريمة ١٥ شارع ابن الوليد بجذائق القبة .

والجنة المنزوعة الرأس في مقابر الروم الكاثوليك .
والمخ المقطوع قطعاً طويلاً في حوض الفورمالين وقد نزع منه الجسم
الصنوبري ، وذلك العدد من الأبخاخ المراساة في الأحواض .
أين رموس أصحابها .. وأين جثثهم .. ؟

ماذا يفعل ذلك المجنون بالآلة الجهنمية التي يسلطها على رموس
ضحاياها ؟

وأية أشعة رهية اكتشفها ؟

وما هي تلك البحوث المرية التي نجريها على الحيوانات المنوية التي يستخلصها من صفادع حية ؟

وما هو السائل الأزرق الذي يستخدمه في تجاربه ؟

وما سر النوبة التي تستولى عليه ؟

وما حقيقة الأصوات التي يهذى بها في نومه ؟

عشرات الأمثلة وعلامات الاستفهام

وأشد ما يفرغني إحساسي بأن الرجل في طريقه إلى هاوية .

ماذا يحدث لو أنه فقد عقله ؟

معنى هذا أن تنقطع صلتنا بالحقيقة إلى الأبد .

كان لابد من وسيلة لاكتشاف كل شيء قبل أن يفوت الوقت ولكن كيف ؟

كيف يمكن أن نعرف ما بداخل جمجمة ؟

كيف نكشف ما يدور في عقل ؟

كنت أروح وأجىء في عصبية حيناً دق الباب ودخل الخادم يحمل تلفرافاً .

كان هو التلفراف المنتظر من أسبانيا .

وقرأت الرد المكتوب باختصار شديد :

« دون سباستيان كاميللو مصارع ثيران مات في الحرب الأهلية الأسبانية

ودون ميخولو فارجا لم يمكن التعرف عليه » .

إذن فهي الحقيقة .

لم تكن الأصوات هدياناً .. ولم تكن الأسماء اختلاق عقل مجنون وإنما هي أسماء لناس عاشوا بالفعل .

وما دار من حديث هو تحصيل حاصل .

لقد دار هذا الحديث ذات يوم منذ سنوات بين أسيرى الحرب دون كاميللو ودون فارجا ، وهما يصارعان الموت في مستشفى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأسبانية .

وما فعله دميان هو أنه التقط هذا الحديث من العدم

كيف تمت هذه المعجزة ؟

عن طريق عضو مجهول من أعضاء المخ ، غالباً عضو معطل عندنا هو الجسم الصنوبرى .. استطاع دميان أن ينيه بقذائف الإشعاع وبالمادة الكيميائية التي يحقنها في الدم .. فإذا به يتحول إلى حاسة مرهقة .. عين داخلية ترى وتسمع من خلال الماضي .

رادار يكشف شبكة الحوادث ويخرق حجب الزمن .

أمر يشير العجب حقاً !

ولكن من يدرى ؟

ماذا لو فكرت دودة عنياء أن في جهازها العصبي البدائي بذرة السمع والبصر ؟

ماذا لو فكرت أنها ذات يوم سيخرج لها حَقْدَةٌ لهم عيون وآذان .. لا شك أنها تعجب ولا تصدق .

وكذلك حالنا نحن العميان بالنسبة للمستقبل .. لا تصدق أنه يمكن أن نرى في الزمان كما نرى في المكان .. وأن التاريخ يمكن أن يتحول بالنسبة لنا

إلى مسرح مرئي .. وأن في محنتنا بذرة لجهاز عجيب يمكن أن يستطلع الماضي ويرى ما حدث فيه رأى العين .
إنه أمر مثير حقاً !

إن وجه الدنيا ليتغير كثيراً إذا قدر لنا أن يتسع نطاق رؤيتنا إلى هذا المدى . فترى الماضي كما ترى الحاضر . وتسمع الأحداث التي ولت وغابت كما نسمع الأحداث التي تجرى حولنا الآن .
إننا نصبح كالملائكة .. كالأنبياء .

ولكن كيف يمكن ذلك ؟
كيف يمكن أن أضع يدي على السر
كيف أصل إلى ما كشفه ذلك الرجل
لا بد من خطة ..

وكنيت أعرف الطريق جيداً هذه المرة .. فقد أخذت طابعاً لثقب الباب
بالشمع واصطنعت لي مفتاحاً خاصاً .
ودخلت خلصة . وكان دميان في الخارج .
وكان كل شيء في المعمل على حاله .

وكانت هناك غلاية للحقن تغلي فوق سخان كهربائي .
ولاحظت وأنا أضع يدي على جهاز الأشعة أنه ساخن . مما يدل على
أنه كان في حالة تشغيل منذ مدة قريبة .

وقبل أن أفكر كيف حدث هذا . كنت أسمع خطوات دميان على السلالم
وصوت مفتاحه يدور في الباب .
وأسرعت لأختفي وراء البارافان .

ورأيت دميان يدخل .. وفي يده لفافة كبيرة .
ورأيت يضع اللفافة على المائدة ويفتحها .
كان بداخلها صندوق زجاجي فيه عنكبوت .. واحد من تلك العناكب
ضخمة التي تكثر من المناطق الاستوائية الحارة .. وسرت في بدني قشعريرة
لأن أنظر إلى رأس الحشرة وإلى العيون العديدة الصغيرة التي تبرز فيها
وكان يخيل إليّ أن هذه العيون ترمقني في مخبيئ .
وبين لحظة وأخرى كان العنكبوت يدور حول نفسه ويدبر رأسه المتعددة
العيون كأنها قبة مرصد فلكي . وينظر إلى محتويات الغرفة .
وكنيت أرتجف في مكاني حينما تقع عيونه الكثيرة عليّ . ولم تدم هذه
الملاحظات طويلاً .. لأن دميان - وفي يده آلة تشريح غريبة تشبه شوكة
دات فرعين - مالبت أن فتح الصندوق . وغرس الشوكة في ظهر
لعنكبوت . وبمشرط صغير قطع العنكبوت الحى قطعاً طويلاً .
ثم بدأ يعمل مشرطه في مهارة وسرعة في منطقة الرأس .
وبعد لحظات كان ينتزع كتلة هلامية بيضاء كروية الشكل ويضعها في
أنبوبة اختبار بها محلول .

ورأيت الكتلة الهلامية تذوب بالتدريج في المحلول لتتحول إلى مستحلب
بيض .

ورأيت دميان يشرع في إضافة عدة محاليل إلى المستحلب . ثم يضع
مزيج في جهاز يعمل بقوة الطرد المركزية ليفصل الرواسب وحدها ..
ويحول الرائق وحده .

وبعد إدارة الجهاز عدة دقائق رأيت يضع الرواسب في دورق زجاجي

ويضيف إليها قطرات من حامض كبريتيك مركز وكحول ، ثم يكمل الدورق إلى منتصفه بالماء المقطر .. ثم يبدأ في عملية أشبه بالتقطير .. كان يضيف فيها قطرات من محاليل عدة .

وبمضي الوقت اختلطت على تلك العمليات الكيميائية لكثرتها فلم أعد أستطيع متابعة تفصيلاتها خاصة أن أغلب المحاليل التي استعملها كانت محاليل مجهولة بالنسبة لي .. كل ما فهمته أنه يعالج هذه الخلاصة معالجة كيميائية شديدة التعقيد .. ليخرج في النهاية بستمزات قليلة من سائل أصفر .

ورأيت أنه يتناول هذا السائل بأيد ضئيلة ليضعه في الأتوكلاف ثم يضبط ساعة الأتوكلاف على وقت معين .. ثم ينظر حوله في راحة ويتشاءب ويغادر المعمل ذاهباً إلى غرفة نومه .

كان يقوم بكل خطوة في هدوء وثقة .. مما يدل على أنه يعرف سلفاً ماذا تعني هذه الخطوة .. للدرجة التي يستطيع فيها أن يترك المعمل ليذهب وينام وهو مطمئن أن كل شيء سيسير على مايرام .

ومضت دقائق .

وسكنت الحركة في غرفة النوم

وكان معنى هذا أنه نام .

ولم أستطع أن أقاوم فضولي .. فخرجت من مخبئي .. وكان أول ما اتجهت إليه هي ساعة الأتوكلاف ، لأعرف على أي وقت ضبطها . ورأيتها مضبوطة على العاشرة .

معنى ذلك أنه أعطى نفسه ساعتين راحة .

ومعنى ذلك أن أمامي ساعتين قبل أن يلقى جرس « الأتوكلاف » فيوقفه ..

ساعتان .

وقت طويل .. ولكنه بدا لي في تلك اللحظة قصيراً جداً .

نظرت إلى العنكبوت وإلى رأسه المشقوق .. وإلى الحفرة الشاغرة حيث كانت تستقر الكتلة الهلامية التي انتزعها .

لم يكن مخ العنكبوت كما خيل لي .. ولكن غدته اللعابية . لقد فتح دميان رأس العنكبوت ليحصل على غدته اللعابية .

كان هذا أمراً غريباً بالنسبة لي !

لماذا يتجشم دميان كل هذه المتاعب ليحصل على الغدة اللعابية لعنكبوت ؟

وفتحت كراسة المذكرات .

ومضيت أقلب صفحاتها .. وكانت أغلب الصفحات مكتوبة بشفرة كيميائية خاصة .. لا سبيل إلى معرفتها إلا بمعرفة مفتاح الشفرة .

وفي صفحة رأيت بعض عبارات بالقلم الرصاص :

• خلاصة من براعم نبات الأكادينيا .

• سرعة نمو البيضة الملقحة (الجنين) في محلول ملحي قلوي .

• الهرمونات كعامل مساعد .

• لا يمكن رفع درجة حرارة المحلول أكثر من أربعين درجة وإلا ماتت

جميع الحيوانات المنوية .

وكلمات أخرى مشطوبة لم أستطع قراءتها .

كان من الواضح أنه يجري مجرى بحثه في فروع مختلفة كل الاختلاف .
مسألة حيرتني غاية الحيرة .

حاولت أن أخرج بخيط مشترك يمكن أن يربط الغدة اللعابية لعنكبوت
بالحيوان المنوى بالبيضة الملقحة في الجنين بالبراعم في نبات الأكاديبيا .

أية رابطة يمكن أن تربط هذا الخليط ؟

نعم .. أية رابطة ؟

يبدو أن هناك خيطاً بالفعل .

خيل لي أن هناك رابطة .. فجميع هذه الأشياء تشترك في صفة الحيوية
والنمو السريع .

البرعم في النبات هو أكثر أجزاء النبات حيوية وأسرعها نماء . وكذلك
الجنين .. وكذلك الغدة اللعابية للعنكبوت . فهذه الغدة هي التي تصنع
الخيط التي يغزل بها العنكبوت بيته . ولهذا فهي أكثر الأعضاء نشاطاً
وحيوية والحيوان المنوى هو الآخر يحمل بذرة التجدد والحياة في كيانه
العضوي الضئيل كأكثر ما تحمل خلية نشطة .

إن دماغ يبحث إذن في سر النشاط والحيوية والنمو والتجدد . ويختار
خاماته الحية من الأعضاء التي تتصف بهذه الصفات .

وهو يهدف من عمليات الاستخلاص الكيميائي العثور على المادة
السحرية .. المادة الباعثة للحياة والنماء والنشاط .

إنه يبحث عن المنبه الطبيعي للحياة

وفتخت « الأتوكلاف »

كانت فيه عدة خلاصات مرقمة .. على كل واحدة رقها وحروف
الشفرة عن مصدرها .

وفي ركن رأيت أنبوبة فيها السائل الأزرق الذي حقن به نفسه .
وتناولت الأنبوبة .

وشممت رائحة غريبة .

كان السائل له رائحة عريية أشبه برائحة الثوم .

وبينا كنت أتفحص السائل سمعت حركة ورفعت عيني لأفاجأ بدميان
واقفاً أمامي .

كانت عيناه حمراوين مثل كأسين من دم . وجفونه واردة .. وخدهاه
متفخين .. وشعره مشعثاً .. وكان يخطو ببطء كأنه يتعلم المشي .. ويكاد
يقع في كل خطوة .

وكان يفتح فمه ليحاول الكلام فلا يستطيع النطق .. وكان يمد يده في
دعر إلى الأنبوبة التي في يدي . وترنحفت شفتاه . وتظهر على جانبيها
رغبة ..

ورأيت أنه يأخذ نفساً طويلاً كأنه عطشان إلى الهواء . ثم ينهوى على
الأرض .

أسرعت إليه .. كان يلهث .. ويفتح عينيه ويغلقها .. ثم يغيب لحظة
عن وعيه .. ثم يعود ينظر حواليه ويهمس :

— أنا لم أقتل أحداً .. أنا قتلت نفسي .. الذين ماتوا لم أقتلهم ولكنهم
ماتوا لأن عمرهم انتهى بعد أن عاش كل منهم مليون عام .. ماذا كانوا
يطلبون من الدنيا أكثر من هذا .. أنا أيضاً عشت مليون عام .. أنا رأيتك

منذ ولدت أول مرة .. أنت لا تعلم أنك ولدت مرات ومرات .. مرات
كثيرة لا تعد .. وأنت عجز .. عجز .. عمرك مثل عمر الهرم الأكبر ..
وبدأت عيناه تغيمان وبدأ يسرح ويهوى في عالم آخر وينظر إلى كأنه ينظر
من خلالي إلى فراغ ..



كان دميان في حالة عقلية عجيبة ، أشبه بالغيوبة .. ولكنها ليست
غيوبة .. بل هي قريبة من البقعة والتفتح والشفافية والجلاء البصرى ..
كان ينظر إلى الأشياء وكأنها تشف له عن معان وأشكال غير أشكالها ..
وكان ينظر إلى وجهي ويتسم كالأطفال ويهمس :
- أناديك بأى اسم .. أنت لك أسماء كثيرة أكثر من ألف اسم ..
أناديك باسمك أيام المالك .. أم أيام الأثر .. أم أيام الخلافة الفاطمية ..
نصور أن اسمك كان في يوم من الأيام « بهلول الحلبي » ..
وضحك ..

ونخيل إلى أن الاسم يبدو مألوفاً بالرغم من غرابته ..

وأردف دميان وهو يتسم :

- بهلول .. بهلول .. تصور .. أصلك كنت بهلول الخليفة .. بهلول
الذي تشقلب أمامه لتضحكه .. كنت قصيراً طول ذراعى هذا .. نعم ..

وهذا أنت أراك أمامي الآن وأنت تشقلب زمان (وأغرق في الضحك) .
كنت ظريفاً جداً أيها البهلول .
ثم عاد ينظر إلى في وقار ..

- الدكتور م . داود دكتوراه في جراحة المخ من برلين .. رجل علم
محترم . يقف له كل من يراه .. أين هو من بهلول الخليفة .. تاريخ .. كل
منا تاريخ .. كل منا حكاية طويلاً مليون سنة .. ألا تريد أن تعيش مليون
سنة .. أنا عندي أكسير من يأخذه يعيش مليون سنة .. يعيش الماضي الذي
مات .. ويفلب صفحات كتاب الدنيا كله

إن المخ شيء عجيب .

أنت تخصصت في جراحة المخ .. ولكن مثل كل المتخصصين لا تفهم
شيئاً .. إن المخ عالم كبير .. أرشيف .. فهرس .. مرجع شامل .. كل يوم من
أيام التاريخ مكتوب به ورقة في محك من الأزل .
من منشأ الحياة .. كل يوم مدون .. ورقة بورقة
هل تريد أن تقلب أوراقك ؟

هل تريد أن تعيش تاريخ كل الأزمان ؟

وسكت لحظة وأمسك برأسه بين كفيه وظهر على عينيه الألم ..
وغامت نظراته .. ثم عاوده اللهاث .. ورأيت حدقتيه تتسعان .
وخرجت الكلمات من فمه كالصغير الخائف المتقطع :

- لا أمل .. أنا سوف أموت .. ! .. أموت .. كل شيء يضم أمامي
الدنيا تصبح ظلاماً .. النور .. النور .. دكتور داود .. الأكسير ..
الأشعة .. الز ..

وأمسك برقبته وهو يتلوى كأنما هناك أيد تخنقه وهو يصرخ في صوت
كالفحيح :

- أنا لم أقتل أحداً .. أقول لكم إنى لم أقتل أحداً .. أنا وهبت كل
واحد مليون سنة .. مليون سنة .. القليل الحقيقي هو أنا .. أنا الذي أموت
الآن ولا أجد لحظة .. لحظة واحدة أعيشها . دكتور داود الأكسير ..
وتلقينه على صدرى وانطلق لسانى الذى عقده الفزع

- أين هو الأكسير ؟

- الأكس ...

- ماهو تركيبه ؟

وسكت وأغمض عينيه على حين رحى أهزه في عنف وأصرخ :
- تركيبه .. أرجوك .

وخرجت كلماته مفككة :

- تركيب .. ب .. ب .. ب ..

وألقي برأسه إلى الوراء ولفظ نفسه الأخير .. مات ..
لم أصدق ..

لمست عينه .. لم تطرف ..

كانت حدقاته تلمعان كالزجاج . وتحميلقان في الفراغ ..
انتهت حياة دميان ..

مات آخر أمل من آمالي على شفثه .

ونظرت حولي في فزع ..

وأدركت الحقيقة الرهيبة كلها دفعة واحدة .

إني الوارث الوحيد للسر..

لا أحد يعلم حياة دميان وموته سوى .
كيف أتصرف؟

إني ساكن مع جثة في « فيلا » على الطريق الزراعي .
ورأيت نفسي أفكر كطبيب .

إن الحصول على كلمة واحدة من دميان أصبح مستحيلاً ولكن ..
ولكني أملك جسده .
أملك مخه .

أستطيع أن أعرف بضربة مشروط ماذا حدث بداخل هذا المخ الذي
أصبح يرى الماضي ويحترق حجب الزمن .

ورسالتني كرجل علم تقتضي مني أن أفعل شيئاً .

وشعرت بالوقت يمشي وكأنه قطار مسرع تدهمني عجلاته .

كان لا بد من العمل بسرعة قبل أن تتيسر الأنسجة .

ونظرت إلى حقبة آلات التشريح ، وإلى المشروط الذي كان يعبث في
عنكبوت منذ ساعة مضت .

وغلب فضولي العلمي على خوفي . فتناولت المشروط وبدأت أعمل
بسرعة .

واحتجت إلى منشار لقطع العظم .

وكان في الحقيقة أكثر من منشار واحد .

لا شك أن دميان كان يقوم بهذه العملية كثيراً بدليل وجود هذه
المناشير .

وبعد ثلاثين دقيقة من العمل المحموم استطعت أن أصل إلى المخ .
كان يبدو عليه الاحتقان . وكانت الشعيرات الدموية متعددة بشكل
ملحوظ .

وكان أول شيء لاحظته حينما قطعت المخ طولياً أن الجسم الصنوبري
ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعي .

وانتزعتني في حذر ووضعته في محلول ملحي .

كان السر كله كامناً في هذه الترسية الصغيرة .

وشعرت أن الجزء الباقي من العمل هو أخطر الأجزاء . أن أقطع مقاطع
ميكروسكوبية في هذه الترسية . وأفحصها فحصاً ميكروسكوبياً لرؤية
التحولات التي حدثت في خلاياها .

وكنت أتوقع أن أجد المعدات اللازمة ، فهذه عملية كان يقوم بها دميان
بانتظام كل مرة .

وكان نوقى في محله . فقد وجدت في ركن جهازاً حديثاً لقطع المقاطع
المطلوبة . وكأنما كان دميان يعلم احتياجاتي كلها فوضع كل شيء في متناول
يدي .. وبدأت أقطع عدداً من المقاطع وأصبغها تمهيداً لدراستها تحت
الميكروسكوب .

وحينما وضعت عيني على عدسة الميكروسكوب لأرى أول مقطع .. كان
المنظر الذي رأيته منظراً مألوفاً .

كانت الخلايا أشبه بالخلايا السرطانية .

لا شك أن هذا المقطع هو نفس المقطع الذي رأيته في شقة ١٥ شارع
بن الوليد تحت الميكروسكوب .. وساعتها خيل إلى أنه نسيج جنيني .

لم يكن نسيجاً جينياً ، لقد كان شريحة من الجسم الصنوبرى .
هل هو سرطان ؟

لا ليس سرطاناً .. بدليل عدم وجود انقسامات في الخلايا .

وإنما وجه الشبه بينه وبين السرطان هو حيوية الخلايا ، وسرعة نموها ،
وشدة قابليتها للصبغة .

إن الخلايا الجسم الصنوبرى في حالة انتفاضة ونشاط .. وهذا كل ما في
الأمر .

ولا شك أن دميان استطاع أن يصل إلى هذه النتيجة باستخدام الإكسبر
لذى أخذه حقناً في الدم .. وباستخدام التنبيه المتكرر بالإشعاع .
كانت القصة قد بدأت تتضح .

ولكن كيف كان دميان يستحضر أكسيره من خلاصات البراعم النامية
وغدد العنكبوت والحیوانات المنوية ؟

ماهى المعالجة الكيميائية بالضبط ؟

النوته تحكى التفاصيل بالشفرة .

ولا أحد يعلم مفتاح هذه الشفرة إلا صاحبها الذى سكت إلى الأبد .
ولكن الأكسير موجود .

وربما أمكن تحليله والوصول إلى مكوناته .

وهناك جهاز الإشعاع .. الذى يمكن الوصول هندسياً إلى معرفة كنهه .
هناك أكثر من أمل .

ولكن كان هناك شيء آخر أهم من هذه الآمال بالنسبة لى .

اختبار أهم من جميع هذه الاختبارات الكمائية .. هو الاختبار

الحى ..

أن أجرب .

أن أجرب بنفسى هذه اللعبة

أن أعيش مليون سنة .

أن أرى الماضى .

كانت الفكرة تفزعنى .. ولكنها تخدر إرادتى وتتسلط على حواسى .

نسيت كل شيء ، ولم أذكر إلا شيئاً واحداً

أن أتناول الإكسبر ، وأتلقى ذلك الإشعاع السحري لأرى ما لم تره عين

وأسمع ما لم تسمع أذن .

آكل من الشجرة المحرمة .. شجرة المعرفة .. وادخل الجنة الموعودة .

كانت الفكرة تخدرنى تماماً .. تسلبنى عقلى .

كنت كطفل أمام قطعة حلوى باهرة يعلم أن دماره فيها ولكن ريقه

يتحلب ليتذوقها .

وبفطرة لا تقاوم ، مثل فطرة آدم التى شدته إلى التضحية ، وجدت

نفسى مشدوداً إلى مصرى .

كانت كل خواطر حياتى تلقى بى إلى ذلك السر .

نعم .. كنت أريد أن أعيش « المليون عام » ، وأولد « المليون ولادة »

وأذوق هذا الذى هو أشبه بالخلود .

ووجدت يدى تمتد إلى الحقنة تملؤها بالسائل الأزرق .. وبدفعة خفيفة

من الإبرة فى الوريد .. كان السائل ينساب فى دمى ببطء ومع حركة السائل

في الدم كنت أحس بشيء كالنضارة ، انتعاش غامض . مثل ارتجاف الأوراق الخضراء في ندى الربيع . يقظة .. انتفاضة .. نشوة .. عنفوان .. تفتح مثل تفتح البراعم .

إحساس غريب طازج .

صوبة نحو كل شيء .

كان كل شيء يبدو في عيني متألّفاً جذاباً .

بهذا رحيق مستقطر من ينابيع السعادة .

ودقت ساعة الحائط الكبيرة .

وتذكرت الدقائق العشر .

كانت أمامي عشر دقائق لأكون جاهزاً لأتلقى الإشعاع .

وأفادتني معلوماتي الطبية وخبراتي في المقاييس المترية للدماغ في ضبط برآجل الجهاز وروافعه الدقيقة وفي توجيه أنابيب الإشعاع الثلاثة إلى أماكن المضبوطة من رأسي . بحيث تلتقي حزم الإشعاع عند مركز المخ في الجسم الصنوبري .

وأدرت مفاتيح عدادات الفولت والأمبير .

لم يبق إلا أن أضغط على المفتاح الأحمر فتبدأ النهاية .

وبشوق لا حد له .. وكأني ألمس شفتي أجمل امرأة .. ضغطت على المفتاح .

وتوهجت أنابيب أشعة المهبط بوهج خافت وارتفع أزيز مكتوم .

٩

كان ما حدث شيئاً لا يمكن وصفه

كل قاموس الكلمات لا يسعفني .

حينما أقول إن الفرع استولى عليّ .. فإنه ليس الفرع المؤلف الذي معرفه . ولكنه فرع آخر لا اسم له .

فرع أقرب إلى تبخر الدهن وتطاير العقل . وكأنما قد فتح ستار فإذا عالم مخيف . تيه تفضل فيه الحواس .

سماء حمراء غبراء تلف كل شيء في غيرتها .. أرض تختلط في ملامحها ظلال أنجر عديدة وجبال وأودية . مدن عشيقة . وشوارع مبلطة ، وحوار مسقوفة . وناس في ملابس تاريخية . وأصوات مختلطة .

وأصابني هذا الانتقال الفجائي بالتشنج فانعقد لساني وفقدت النطق . وفقدت الحركة . وتحولت إلى عينيّن محمليقتين مثل حفرتين من جيبس تنظران في فراغ .

ولكن بمضى الوقت بدأ يسيطر على شعور آخر مختلف تماماً عن الشعور الأول .

بدأت أشعر أن هذا العالم الغريب الذى أزيح عنه الستار ليس غريباً تماماً . وإنما هو عالم مألوف إلى حد ما .. أستطيع أن أعرف فيه على ملامحه .. عالم أصيل حقيقى .. أكثر واقعية من عالمنا المألوف .

بل إنى لأكاد أسمى الأشياء أمامى بمسمياتها .. وأكاد أستوقف الناس الذين يهرولون فى مواكب لا حصر لها وأناديهم بأسمائهم .

هذا عالم أعرفه .. وناس أعرفهم .

هذا عالم عشته .

بماذا أصفه لكم ؟

إنه أشبه بعالم متداخل .. تتداخل فيه الصور وكأنها صور شفافة مرسومة فوق زجاج ، وموضوع بعضها فوق بعض .. تشف كل صورة عن الصورة التى تحتها .

كل شخص يشف عن شخص آخر بداخله .. وهذا الآخر يشف عن شخص ثالث ورابع وخامس إلى ما لا نهاية .

وبمثل ما تتداخل الصور تتداخل الأصوات والألوان .. وتتداخل الحوادث .. وتتداخل الفترات الزمنية .. وتتداخل الأحقاب والعصور فى عوالم مزدحمة كأنها الحشر .. وبرغم ذلك فهى لا تختلط على العقل وإنما تبدو مميزة متباينة .. وأعجب من هذا أنها تبدو مفهومة .. وطبيعية .

وكل فرد فى هذا العالم لا يبدو فرداً واحداً .. وإنما يبدو ألوفاً مؤلفة من

الأفراد والشخص ، مثل الصور المكررة فى شريط سينمائى منظور إليه بالعين مجردة .

إن ما تراه العين فى هذا العالم ليس الفرد ولكن تاريخه .. إنها ترى حجمه وزمنه .

والزمن فى هذا العالم ليس يدرك بالبداهة .. وإنما هو بعد حقيقى تراه العين .

وهو ليس عالماً خرافياً ، بل هو عالم حقيقى .

عالم يعرفى كما أعرفه .

هذا واحد فى الزحام اللانهاى ينظر إلى ويتسم .. وينادىنى باسمى « إيزاك » .. نعم هذا هو اسمى « إيزاك » .. أنا أعلم جيداً أن اسمى « إيزاك » .

وهانحن نذهب معاً إلى حانة تحت ربيع قديم لنسكر .

الحانة أعرفها ، والمكان أعرفه ، والساق أعرفه ، والكل يشمون فى وجهى ابتسامة الألفة والعشرة الطويلة .

وصديقى « ذكران » يتحدثنى عن الجارية التى اشتراها من سوق النخاسة . ويحدثنى عن رائحة عرقها . وعن فخدها الممتلئ ، وأنا أضحك ، وأشرب ، وبجىء الشواء ، والتوابل ، وصديقى يقول : ذق من هذه التوابل .. إنها من توابل البصرة اللذيذة .

وعلى باب الحانة نسمع صوت ترس وزررد وصليل أسلحة .. ثم صرخة .. وأنين مجتئق .. وخطوات مسرعة .

ونقوم ونحن نترنخ .

وعلى باب الخانة نجد فارساً مذبحاً يلفظ آخر أنفاسه .

وأميل عليه وأضع يدي على قلبه .

وأرفع يدي الملوثة بالدم لأجد على رأسي جندباً مدججاً بالسلاح يقول

.. إيزاك اللعين .. ياقاتل .. يداك تقطران دماً .

وأتلقت حولي .

لقد فر صديقي بجلده .

- إيزاك اللعين .. باتاجر السم .. يالجنة اهل بغداد !

- أنا لست تاجر سم يا صديقي ، ساعحك الله .. أنا تاجر عقاقير

- أهى عقاقير . أم أحجبة أم رق مسحورة يا كافر يا نجس .

- مالى أنا ومال السحر .. اتركني برحمتك الله .. أنا رجل فارسي غريب

ولست من هذه البلاد .

- الليلة نحل ضيفاً على سجن القداحة بأيتها الفارسي الغريب وغداً تقف

أمام القاضي العادل « أبو قطافة » وبعد غد تذهب بإذن الله إلى القرافة .

- أنا برىء والله العظيم .

- بأى عظيم تقسم أيها الكافر .

- أنا برىء يا ناس .

- يا فارسي يا نجس .

- أنا برىء يا خلق .

وأصرخ فيه وأقبل يديه وقدميه وأنا أرتجف رعباً .. ولا فائدة .

وفي سجن القداحة أقضى الليل في الظلام والرطوبة والبرد الذي يتخلل

مظام . ومن حولي ديب هوام . وحفيف أشياء ترحف .. وأصوات

سعال .. وحشرجة ناس نموت .

وفي الصباح أقف أمام القاضي أبو قطافة .. ويشهد الجندی شهادة عيان

بأنه رآني أقتل .. ورأى يدي مخضبتين دماً .. ويحكم القاضي على

بالإعدام . ويضرب السياف عنق أمام بوابة « أمية » .

وأموت .

ولكني لا أنتهي .

وفي هذا العالم الغريب لا أحد ينهي ، الكل يولد من جديد ويعيش

حياته مرات لا نهائية .

فأنا مرة أخرى في دير البلح في صحراء سيناء .. الأسقف « حنين »

الأب الطيب الذي يفيض قلبه محبة .. حياتي صلاة وتعب .. وطعامي من

الخمر الجاف والشعير .. ونهارى الطويل أقضيه في التأمل وسبحات الفكر ..

والناس يسعون إلى من أطراف الأرض لأمنحهم البركة .

يا لها من حياة كلها سماح !

لا .. لم أكن أحلم .

وحينما ضرب السياف عنق أمام بوابة « أمية » لم يكن ما شعرت به

كابوساً ، لقد كنت أعيش وأموت .. وكانت حياتي حقيقة ، وكانت آلامي

واقعاً .

وفي تلك اللحظات حينما كنت أتذكر نفسي - أنا الدكتور داود -

كانت هذه الذكرى الشاحبة هي التي تبدو لي كالحلم ، يا لها من رؤى !

عشرات المرات أكتشف نفسي في عشرات الأماكن بعشرات

الأسماء .. وفي كل مرة أخرج إلى الدنيا بشخصية مختلفة وكأني إنسان جديد كل الجدة .

الزمن جميعه أصبح ملكي وكأنه بويينة فيلم أتفرج فيه على جميع اللقطات التي أخذت لي في جميع الأوضاع والأسماء .
مئات السنين عشتها .. وعانيتها يوماً يوماً .. كل يوم له نصارته وحلاوته ومرارته .. وكأنه أول وآخر يوم في العمر .

قابلت « ماتيلدا » الجميلة ذات العيون الخضراء في سوق قرطبة ذات مساء وكانت تحمل سلة بها تين .

ونحت ضوء قمر أبريل الدافئ الحنون سرنا متخاصرين .

تحمل الأنسام وشوشاتنا .

ماأحلى القبله المختلطة !

ولسة الأنامل المرتجفة حينما تثر على بعضها .

وذلك الحذر والدوار .

وملمس الشعر ذي الجدائل .

ورائحة الطيب .

وممس الجنان .

ماذا تفعل ظبه السيف حينما تطعن قلباً أحب وعشق ؟ لا شيء . لقد أحب وعشق .. لقد عاش ملّ وجوده .. الموت لن يسلبه شيئاً .

إننا نفق من ثروة أبدية لا تنفذ .

إن عمرنا ملايين السنين .

عمرنا من عمر النجوم .

نحن لا نفقد شيئاً . ليس هناك ما يدعو للعجلة . ولا للمحسرة . ولا للندم . فالعمر طويل .. طويل أبدي . والفرص لا نهائية .
كنت وأنا طفل أحلم بأنني أقود الجيوش . وأفتح الأمصار والأقطار .. وكان قلبي يخفق طرباً وأنا أقرأ عن جينكيز خان وهانيبال والإسكندر . وتعذبني الآمانى والآمال .

لو أنى فتحت كتاب حياتي .

لو أنى عدت إلى الوراء . ورأيت ما أرى الآن .

الحصار على أسوار عكا . وغبار معركة « الحصن » .

وبريق السلاح الأبيض .. وأنا « ابن خزاعة » أحارب وظهري إلى

الحائط وليس في جسدي مكان لم يرشقه خنجر .. وبوابة الحصن تنهار تحت

طرقات المنجنيق .. وجيشنا المظفر يتدفق داخلا كالطوفان .. أكاد أتحس

مكان كل جرح في صدري وكنتي وساقى .

والألم المبرح ينفذ في لحمي كالنار .. ترفه الطبول والأبواق وهتاف

الجنود ..

يا لها من دنيا مليئة !

كنت أفكر .. وأتأمل في شروء حينما خيل إليّ أن هذه الرؤى تبتعد

تغرق في ضباب كثيف . وكأنما قد انسدت ستارة على المنظر كله فراح

حجبه رويداً رويداً .

وشيثاً فشيثاً بدأت أظن إلى ملامح جديدة هي ملامح معمل دميان ..

والكرسي الذي أجلس عليه .. وأنايبب أشعة المهبط .. وجهاز الأشعة

بروافعه وعداداته .

لقد توقف الجهاز من تلقاء نفسه .. وأفتت تماماً .
كان الجهاز مضبوطاً ضبطاً أوتوماتيكياً على مدة اشتغال محددة .
ونظرت إلى ساعة الحائط ، واكتشفت أن نصف ساعة قد مضت منذ
بدأت الجلوس أمام الجهاز .

معنى هذا أنى قد عشت مئات السنين فى خلال هذه النصف ساعة ..
فى خلال ثلاثين دقيقة عشت كل هذه الأحداث التى تملأ مجلدات .
معنى هذا أنى كنت فى عالم آخر له زمنه المختلف ومعاييره المختلفة ..
عالم .. الدقيقة منه تحفل بأحداث سنين ..

إنه اكتشاف رائع .
إننا سجناء دقائق مفلسة يمكن أن نعيشها سنين خصبة غنية إذا عرفنا
كيف نخرج من أسرها لنخلق فى أجواء ذلك العالم الآخر .

كيف نستطيع أن نحقق هذا ؟ ؟ !
وكيف نستطيع البقاء فى ذلك العالم الآخر إلى الأبد ؟ ؟ !
سؤال لاشك أنه كان يشغل بال دميان فحاول أن يجيب عنه ..
واستغرق فى هذه البحوث الكيميائية محاولاً أن يصل إلى سر هذه الآلة
العجيبة التى اسمها المخ .

إن المخ أرشيف . فهرس . كما قال دميان .
سجل فيه محضر كامل بما حدث فى هذه الدنيا منذ بدء الخليقة مدوناً فى
لخلايا ومكتوباً على لفائف الأعصاب .

كيف نبعث هذا السجل الحافل . كما نستعيد ذكرياتنا اليومية فى عقولنا
كل لحظة .
هذه هى المعجزة التى حاول أن يحققها دميان باستخدام أكسيره

١٠

كانت أمامي مهمة عسيرة .
أن أعرف تركيب الأكسير .
وفكرت أن أبدأ في تحليله منهجياً .. ولكن العقبة كانت في كمية
الأكسير الموجودة .. كانت كلها لا تزيد على عشرين سنتيمتراً .
معنى هذا أن أكتفى بقطرات لأجرى عليها اختباراتي . وهذا عسير .
وكانت هناك رغبة أخرى تنازعني .. هي رغبة حادة ملحة في الاستمتاع
بهذه الكمية لأعيش تلك الحياة المسحورة وأعود إلى ضباب الماضي ولذاته .
كانت كل قطرة في طياتها وعداً مغرياً بحياة طويلة عريضة حافلة
بالأحداث .

وكانت هذه الرغبة تتحول عندي إلى شهوة أكالة ميطرة متسلطة أقوى
من شهوة المدمن إلى الأفيون .
وكان الضعف والتخاذل يستولى عليّ كلما مددت يدي إلى أنبوبة

السائل ، وكنت أشعر أنها أثمن وأغلى وأقدس من أن تبدد في أي غرض ،
ولو كان هذا الغرض هو اكتشاف حقيقة .. فأية حقيقة أثمن من الحياة ؟ !
إن هذه السائل الثمين هو وعد بالحياة لكل من يتعاطاه .. وأية حياة ؟
مئات السنين الحافلة بالمتع .

وأمام هذا الإغراء الأكال تحولت إلى إنسان سليب الإرادة . محدود
الذراعين في تسول خاضع خانع يشتهي قطرة .

في دمي وفي فخاع عظامي نداء ذليل .

وفي قلبي فزع يراودني .

ماذا لو نفذ السائل ؟ !

كنت أشعر بسعار .

سعار أقوى ألف مرة من سعار الجنس في جسد فحل مراهق .

كراييج تلسفني .

وتذكرت دميان .. وهو يتجول في المقابر مثل الخفافيش مصاصة

الدم .. جرياً وراء هذه القطرات الملعونة .

إنه الجنون .

لقد أدركت سر نظرتة المجنونة وهو يقف أمامي في آخر مرة ينظر إلى

السائل في يدي .

لقد كادت عيناه تخرجان من مجريهما .

نعم .. لم يكن هناك سبيل إلى مقاومة هذه الشهوة المدمرة .

ورأيت نفسي أتحرك في خطوات مخدرة إلى أنبوبة السائل ، وأملأ الحقنة

وأحقن بها ذراعي وأنا أرتجف بنشوة غلابة .

وبعد الدقائق العشرة كنت أجلس في مكانى من الجهاز . واضغط على
المفتاح لأدخل مرة أخرى في تلك الغيبوبة المسحورة .
وكانت كراييج حقيقية هذه المرة تلك التى نزلت على ظهري العارى ..
وأنا أدير أنا وعشرات من العبيد رضى معصرة زيت ..
منى .. وكيف .. ولم .. جاءوا بي إلى ذلك المكان ؟
وفي أى عصر من عصور التاريخ الغابرة .
ومن هو السيد الذى يتخطر بيننا بحلة موشاة بالقصب ويدفعنى في
ظهري صارخاً .. اشتغل يا كلب .
يا إلهى .. ولكنى لست إنساناً ؟
أنا ثور وعلى عيني عصابة .
وأنا أخور كالثيران .
وأنا أمشي على أربع .
وأنا لى حوافر .
وأنا آكل التبن .
وجلدى سميك . وإحساساتى بليدة . ولا أشعر بفارق يذكر بين لدغ
كرباج وضرب عصاً .
واهتماماتى فى الدنيا قليلة . أن آكل وأشرب وأوقع الأنثى . أى أنثى .
وذاكرتى لا يعلق بها شىء . فأنا لا أذكر شكل أولادى وأنا لا أحزن
ولا أفرح . وإنما أجوع وأشبع على أكثر تقدير .
وبعد الشبع أنام .
وهو دائماً نوم عميق .

لا أحد منكم جرب نوم الثور .
لو جربتموه لتبينتم أن تكونوا ثيراناً .
إنه لشيء فريد . ذلك النوم الذى يتحول فيه الواحد منا إلى قالب
طوب .
إن قلوبنا نقشعر حينما نتصور ذبح ثور . ولكنه ليس أمراً مؤلماً بالقدر
الذى نصوره .. إن ألم الضرس أشد منه .
إن ما أحسست به ذات يوم حول عنق حينما ذبحونى كان ألماً بليداً لم يدم
إلا فترة قصيرة .. ثم انتهى كل شىء .
لا لم ينته .. فلا شىء ينتهى فى ذلك العالم .. أبداً .
فها أنذا مرة أخرى أعيش .
لست ثوراً هذه المرة .
ولا أعرف بالضبط من أنا .
كل ما أعرفه أنى فى غابة ، وأن الغابة مليئة بالأشجار ، وأن الأشجار
هائلة الحجم ، وأن الأرض تغطيها المستنقعات .
مستنقعات .. مستنقعات فى كل مكان .
ولا صوت حولى سوى صوت الرياح .
والأمطار تسقط بغزارة ، والجو يقطر بالرطوبة .
ومياه المستنقعات دافئة ، ويخرج منها من وقت لآخر غازات فسفورية ،
وأوراق الأشجار غريبة الشكل أشبه بأوراق السرخس المنقرضة .. ولا توجد
مخلوقات .
ولا شىء يذكر يحدث حولى .

والزمن يمضي بطيئاً بطيئاً .. وكأنه لا يوجد شيء اسمه زمن .

وعندى إحساس رهيب بالخواء .

ياإلهي .. إني شجرة .

لعلها مئات السنين تلك التي كانت تمضي ، لأن ستار الضباب عاد
فانسدل على المنظر كله مؤذناً بانتهاء التجربة .

وبدأت أفيق من جديد على مكاني من الكرسي في معمل دميان . وقد
انقضت نصف الساعة .

كانت تجربة عجيبة .

...

تركت الجهاز ..

وجلست أكتب مذكراتي وأنا ألث خشية نسيان ما رأيت ..

كنت أريد أن أسجل كل دقيقة عشتها في ذلك العالم المسحور .

ولاحظت بجنب عيني وأنا أكتب أن السائل لم يبق منه إلا نصفه .

ولاحظت ملاحظة أخرى أفزعني .. أن النصف الباقي من السائل قد

تغير لونه من الأزرق إلى الأخضر .

ليس اللون فقط .. بل الرائحة أيضاً .

لم تعد له رائحة الثوم .

لقد أصبح شيئاً آخر .

لقد فات الوقت .. ولم يعد من الممكن معرفة تركيبه .

لقد تحلل إلى مركب جديد .

ولاشك أن خواصه قد تغيرت أيضاً .

وكان خاطراً مفزعاً أن أتصور أنه لم يعد فعلاً ، وأنه لم يعد من الممكن

أن يؤثر في المخ كما كان يؤثر في الماضي ، وأن العودة إلى ذلك العالم المسحور

قد غدت مستحيلة .

وما بقي لي من عمر سوف أقضيه سجين هذه الدنيا المفلسة .

لم يعد هناك مخرج .

لن أجد مهرباً من هذا العالم الغليظ .

لن أستطيع التحليق خارج الزمان والمكان .

كان تصديق هذا الخاطر شيئاً فوق احتمالي .

وأسرعت أملاً الحقنة وأحقنها في ذراعي .

كنت أريد أن أطمئن .

...

كانت هذه آخر ورقة كتبها الدكتور م . داود في مذكراته .. فقد عثر

عليه بعد ذلك بساعات ميتاً في معمل دميان .

وكان المعمل يحترق إثر شرارة كهربائية مجهولة المصدر . وكل الأجهزة

قد اشتعلت فيها النيران .. لم تبق منها إلا هياكل فحمية .

وقال الطبيب الشرعي الذي فحص البقايا المحترقة في تقريره عن

مذكرات الدكتور م . داود .. إنها مذكرات عجيبة .

وحينما سأله وكيل النيابة :

- ماذا تعني بقولك إنها مذكرات عجيبة ..

ظهرت علامات الحيرة على وجه الطبيب وأردف قائلاً :

- كل ما هو مكتوب في هذه المذكرات عن الجسم الصنوبري .. وعن

الحيوية في . البراعم ، وفي خلايا الجنين ، وفي غدد العنكبوت
والأكتوميسين ، يمكن أن يكون صحيحاً من الناحية العلمية ولكن .
- ولكن ماذا ؟

- ولكن الأمر كله يبدو غير معقول . هل يمكن أن تتصور أنك تعيش
حياة أبدية ؟

وبدا الارتباك على وجه وكيل النيابة وأجاب في صوت خافت .
- نعم إنه شيء غير معقول . إنه الجنون بعينه .
ثم أردف وقد خفت صوته أكثر .

- ولكن . من يدري . وهل نعرف نحن كل شيء في هذه الدنيا .. إن
كل ما نعيشه بضع سنوات في زمن لا أول له ولا آخر .
ماذا نكون نحن في عمر الدنيا حتى ندعى الإحاطة بكل شيء . هذه
دنيا كلها طلاس .
كلها طلاس .